
د. فؤاد زكريا
كم عمر الغضب

د. فؤاد زكريا



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مقـدمة

قبل أن يظهر كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل المشهور « خريف الغضب » فى الأسواق ، نشر على هيئة سلسلة من المقالات فى صحيفة « الوطن » الكويتية . وطوال الوقت الذى كانت تنشر فيه هذه المقالات ، كانت سلسلة أخرى من الأفكار تتفاعل فى ذهنى وتتبلور يوما بعد يوم . كان كتاب هيكل . بغير شك هو السبب المباشر فى إثارة هذه الأفكار ، ومع ذلك فقد كانت أصولها أبعد من ذلك وأعمق بكثير ، إذ كانت فى نهاية المطاف تأملات فى تلك الأزمة العقلية الشاملة التى شوهت تفكيرنا ، حكاما ومحكومين ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . وحين اطلعت على ردود الفعل التى أثارها كتاب هيكل ، أو ما نشر منه ، فى الأوساط الرسمية والإعلامية والثقافية المصرية ، والطريقة التى استجاب بها الناس له ، ما بين موافق ومخالف ، ازدادت الأمور فى ذهنى وضوحا ، وتبين لى أن المناخ السائد ، الذى تولدت عنه هذه الأزمة العقلية ، يلف الجميع ، من مؤيدين ومعارضين ، مهما بدا من اختلاف ردود أفعالهم فى الظاهر . وكانت المهمة التى أخذتها على عاتقى هى أن أحدد أبعاد هذه الأزمة ، وأثبت أن المشكلة ليست مشكلة هيكل وحده ، أو مشكلة التضاد بين هيكل وتلك القوى التى وقفت تحتج وتعترض عليه ، وإنما هى أوسع من ذلك وأخطر . فقد تشوهت أشياء كثيرة فى عقولنا بفعل فترة القمع الطويلة التى لم تسمح لفكرنا بأن ينمو ويتطور بحرية . وإذا كان هذا التشويه قد ظهر بوضوح كامل فى معركة

« خريف العمر » ، بين أنصار هيكل وخصومه ، فإن هذه المعركة لم تكن فى الواقع إلا مظهرا واحدا لداء أصبح متأصلا فى عقولنا ، ولطريقة فى التفكير فرضت نفسها على مختلف أطراف الصراع السياسى والاجتماعى الراهن .

فى ضوء هذه الفكرة المحورية سجلت آرائى فى هذا الموضوع فى عشر مقالات كتبتها فى عشرة أيام ، وإن كان مضمونها حصيلة تفكير طويل ، وظهرت فى صحيفتَى « الوطن » الكويتية و « الرأى » الأردنية فى وقت واحد ، ونشرت خلال شهرى يونيو ويوليو ١٩٨٣ . وكانت ردود الفعل على هذه المقالات دليلا واضحا على صحة تشخيصى للأزمة التى انتابت العقل العربى نتيجة لعهود القمع الطويلة .

منذ اللحظة الأولى اتخذت صحيفة « الوطن » الكويتية موقفا مناوئا لى ومجاملا لصاحب « خريف الغضب » . وكان جزء من هذا الموقف راجعا إلى النفوذ الضخم الذى يمارسه صاحب ذلك الكتاب على قطاعات هامة من الصحافة العربية ، وجزء آخر راجعا إلى إحساس الكثيرين ، من المسئولين عن النشر فى تلك الصحف ، بأن الأفكار التى أحللها وأنقدها تزعزع كثيرا من المعانى والقيم الراسخة فى نفوسهم . وقد ظهر ذلك بوضوح صارخ فيما بعد ، حين قامت هذه الصحيفة بحذف الجزء الأساسى من المقال التاسع ، الذى يتناول علاقة هيكل الخاصة بأمريكا ، وعنوانه : عمنا سام . وكان المضحك المبكى فى عملية الحذف هذه هو أن الجزء المحذوف كان فى معظمه اقتباسا طويلا من كتاب سابق لهيكل نفسه ، وهو اقتباس يستطيع القارئ أن يستنتج منه بسهولة أن أمريكا تتوقع من هذا الصحفى الكبير أن يلبى لها طلبات غير عادية لا هدف لها سوى تحقيق المصالح الأمريكية الخاصة . ولم أكن فى هذا الجزء بالذات إلا ناقلا لكلام هيكل ذاته ، مع بعض التعليقات البسيطة . ومع ذلك فإن الصحيفة الناشرة كانت تخشى على هيكل من هيكل

نفسه ، فأدى بها حرصها على إرضائه إلى الامتناع عن نشر كلماته ذاتها !

على أن ردود فعل الجمهور على ما نشرت كانت تستحق التأمل. فقد وجد ما كتبته صدى طيبا لدى فئتين : فئة الشباب من جهة ، وفئة الكبار الذين كان وعيهم السياسي والاجتماعي قد بدأ يتبلور قبل ثورة ١٩٥٢ من جهة أخرى . كان الشباب متحمسين لما كتبت ، إذ كانوا يرون فيه طابعا غير مألوف ، يستجيب لرغبتهم فى نقد الأوضاع الفاسدة من الجذور . وكان النقد الحاد الذى وجهته إلى أسلوب التفكير السائد فى عهد كامل ، يتمشى مع ما يلمسونه حولهم كل يوم من مظاهر الانهيار الناجمة عن أخطاء ذلك العهد ، ويتجاوب مع طموحهم إلى تشييد بناء جديد مختلف بصورة جذرية عن الأوضاع القائمة والمتوارثة . أما الكبار فكانوا سعداء بما كتبت لأنه يمثل خروجا عن الأطر الضيقة التى ظل الفكر السياسى يدور فيها ، حتى فى كثير من أوساط المعارضة ، طوال العقود الثلاثة الأخيرة .

أما الفئة التى وقفت موقف المعارضة مما كتبت ، فكانت تنتمى إلى الجيل الأوسط ، أعنى ما يطلق عليه جيل الثورة . ولست أعنى بذلك أن جميع أفراد هذه الفئة قد اتخذوا من كتابتى موقفا سلبيا ، إذ أن الكثيرين منهم أبدوا تحمسا واضحا ، ولكن ما أعنيه هو أن الجزء الأكبر من المعارضين كانوا ينتمون إلى هذه الفئة .

كان عدد غير قليل من هؤلاء المعارضين من ذوى الارتباطات السابقة بثورة ٢٣ يوليو ، وكان همهم الأكبر هو الدفاع عن هذه الارتباطات . وتلك فى الواقع ظاهرة مؤسفة فى حياتنا السياسية المعاصرة : فيكفى أن يكون المرء قد احتل يوما ما موقعا فى الاتحاد الاشتراكى ، أو منظمة الشباب ، أو التنظيم الطليعى ، حتى يهب لمهاجمة كل من يتصدى بالنقد لممارسات ثورة يوليو ، وكأن هذا الناقد يوجه إليه هجوما شخصيا يتعين عليه أن يصده بهجوم

مضاد ، يدافع به عن ارتباطه السابق ويبرره ، فى ثنايا دفاعه عن النظام كله وتبريره . والأمر الذى فات هؤلاء هو أن المنظور الذى كتبت منه لا علاقة له بالأشخاص وانتماءاتهم ، وإنما هو منظور أوسع من ذلك بكثير ، يرصد التيارات والاتجاهات ويوضح جوانب القصور فيها ، مستهدفا غاية أسمى بكثير من الانتقام من عهد معين أو تصفية الحساب مع المتعاونين معه . والأهم من ذلك أن التدهور الذى أصاب كافة جوانب حياتنا كان كفيلا بأن يجعل أصحاب الارتباطات السابقة ينسون أشخاصهم ويركزون تفكيرهم فى أوضاعانا المتردية ، وفى أفضل السبل لإنقاذ وطننا من الهاوية التى ينزلق إليها بسرعة رهيبة . ولكن يبدو أن الحرص على تبرئة الذات وتبرير تاريخها السابق أهم لدى الكثيرين من مد يد المعونة إلى الوطن الغارق .

وهكذا اعتقد الناصريون أننى لم أقصد ، من كل ما كتبت ، سوى عبد الناصر ، وأغمضوا عيونهم عن جميع الشواهد القاصعة التى تدل على أننى تصديت لأسلوب فى الحكم ، لا لأشخاص ، ولم أتعرض لعبد الناصر أو للسادات أو هيكل إلا بقدر ما كانوا يجسدون هذا الأسلوب فى فكرهم أو ممارساتهم . واعتقد بعض اليساريين أن انتقادى هيكل ، فى الوقت الذى كان يخوض فيه معركة ضد المؤسسة الساداتية ، كان نوعا من السذاجة السياسية التى تؤدى موضوعيا إلى خدمة المعسكر الساداتى . ولو كان هؤلاء قد أمعنوا التفكير فيما كتبت لتبين لهم أن النقد الذى وجهته إلى أسس النظام الساداتى كان أكثر فعالية بكثير من انتقادات هيكل . ذلك لأن صورة السادات عند هيكل تظل دائما مهتزة غير محددة المعالم ؛ فهو يصوره مغامرا غير وطنى فى شبابه قبل الثورة ، ثم واحدا من أقرب المقربين إلى زعيم وطنى كبير ، ثم رئيسا للبلاد أعطاه هيكل ، خلال سنواته الأولى والحاسمة ، كل تأييده ، آملا أن « يمنحه فرصة » يمحو فيها تاريخه القديم المشين ، ثم قائدا لا

يعرف كيف يدير ، سياسيا ، معركته العسكرية الكبرى ، ثم زعيما متهاونا ومستسلما أمام أعداء الوطن ... إنها صورة خالية من التماسك والاتساق ، وما كان من الممكن إلا أن تكون على هذا النحو ، إذ أن مواقف هيكل نفسه من السادات كانت أبعد ما تكون عن الاتساق ، وكانت تتراوح بين التأييد المطلق والعداء المطلق ، مع إنكار العداء السابق وقت التأييد ، وإنكار التأييد السابق وقت العداء . وهكذا كان الاهتزاز فى صورة السادات ، كما رسمها هيكل ، تعبيرا عن التذبذب الحاد فى مواقف هيكل نفسه . فهل هذا الموقف الأعرج هو الذى يمكن الاعتماد عليه فى نقد الظاهرة الساداتية ؟ ألن يكون النقد المتسق ، المتماسك ، الصادر بدوافع موضوعية لا تشوهها ارتباطات أو تبريرات ، هو الأقدر على كشف السمات الحقيقية لهذه الظاهرة ؟

ولقد كان الوجه الآخر لهذه الرؤية الضيقة ، هو تصدى بعض الناصريين للدفاع عن هيكل بوصفه رمزا للناصرية ، ناسين تماما تلك المعركة التى خاضها بكل ضراوة ، جنبا إلى جنب مع السادات ، فى عام ١٩٧١ ، ضد الكتلة الرئيسية من الناصريين الذين أطلق عليهم اسم « مراكز القوى » ، وتلك الخلافات التى نشبت بينه وبين أشد العناصر الناصرية إخلاصا لمبادئها ، وذلك الدور الحاسم الذى لعبه فى سنوات السادات الأولى من أجل تهيئة عقول الناس للتحول الحاسم الذى كان يخطط له بذكاء من أجل هدم دعائم أساسية للناصرية .

أعود فأقول إن ردود الأفعال هذه كانت دليلا آخر على صحة التشخيص الذى قمت به فى هذا الكتاب للتشويه الذى لحق عقولنا بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد . فقد ظهر لى بوضوح كامل أن عددا لا يستهان به من مثقفينا ما زالوا يصرون على تصنيف المفكرين السياسيين فى إطار تلك الثنائية المحدودة : الناصرية أو الساداتية . فأنت فى نظرهم لا بد أن تكون

هذا أو ذاك . وإذا انتقدت أحدهما فلا بد — فى رأيهم — أن يكون هذا النقد لحساب الآخر . أما أن يتخذ المفكر لنفسه موقعا خارج نطاق هذه الثنائية ، ويقف من الطرفين معا موقفا ناقدا متحررا ، كما حاولت أن أفعل فى هذا الكتاب ، فهذا ما يعجزون عن تصوره أو استيعابه .

والحق أن هذا الكتاب سيكون قد حقق الهدف الذى يرمى إليه كاتبه لو استطاع أن يقنع القارئ بأن مصر أوسع وأرحب من أن تختزل إلى هذه الثنائية الضيقة المحصورة فى إطار ثورة يوليو ، وبأن العهدين الناصرى والساداتى ، وإن اختلفا تماما فى مضمونهما وأهدافهما ، قد أخضعا مصر لأسلوب فردى فى الحكم كان هو المسئول عن القدر الأكبر من هذا التدهور الذى نلمسه فى كل جوانب حياتنا ، وهذا الانهيار القاتل فى معنويات الإنسان . ولو لم يدرك القارئ عن وعى طبيعة المنظور الاستقلالى الذى كتبت به هذه الصفحات ، لأفلت منه الخيط الأساسى الجامع بينها ، وعجز عن فهم الهدف الحقيقى الذى يرمى إليه كاتبها .

فؤاد زكريا
إبريل ١٩٨٤

الفصل الأول

انتقام الأرشيف

لن أكون قد أضفت جديدا لو قلت إن هيكل ، فى « خريف الغضب » قد قال الكثير . ولكن الجديد الذى أود أن أضيفه هو أن ما لم يقله هيكل أهم وأخطر بكثير مما قاله .

لقد أثارت المعلومات الهائلة التى فجرها هيكل فى كتابه ، والتى لم يكن أحد غيره يستطيع أن يصل إليها أو يعبر عنها بمثل هذه الدقة ، عاصفة عاتية فى مصر ، سرعان ما امتدت إلى سائر البلاد العربية . كان هيكل هنا يكتب ، لأول مرة ، « بصراحة » ، ولم يكن من العسير على القارئ الواعى أن يدرك أنه تخلى ، فى « خريف الغضب » ، عن الأسلوب الدبلوماسى الحذر ، وعن طرق التعبير غير المباشر التى كانت تميز « صراحاته » فى معظم الأحيان . كان هيكل هنا ، لأول مرة ، فى مواجهة حقيقية أمام حاكم كان نظامه لا يزال ، بعد موته ، يحتفظ بالكثير من أعراض الحياة ، بل كانت روحه لا تزال — فى رأى البعض — ترفرف بقوة على معظم جوانب الحياة الرسمية فى مصر . وجاءت المواجهة قاسية ، مريرة ، نافذة بضرباتها إلى الصميم .

وحين بدأت المعركة الحامية حول الكتاب ، كانت تحمل سمة فريدة يقف أمامها الفكر الواعى حائرا . فقد كانت ، بالنسبة إلى الغالبية الساحقة من المصريين ، معركة ضد شبح مجهول . كانت الردود تتوالى ، بعضها مؤيد ومعظمها معارض ، دون أن يكون أحد قد عرف عن موضوع المعركة

وأسبابها إلا معلومات أولية نقلتها حلقات قليلة جدا من الكتاب ، وتسربت إلى الجمهور قبل أن يصدر قرار المنع . ومع ذلك فقد استمرت المعركة بعد المنع ، وضد هذا الشبح المجهول ، بكل حدتها وعنفوانها . وكانت تلك المعركة ذاتها من أبرز أعراض ذلك المرض الذى عانى منه المصريون مرارا طوال الأعوام الثلاثين الأخيرة : أعنى أن يروا أجهزة إعلامهم تمتشق سيوفها بكل الحماسة والغضب ضد عدو لم تتح لهم فرصة معرفته .

فى هذه المعركة كان الاستقطاب واضحا : فقد أعطاها أنصار هيكل وخصومه طابع الصراع بين عهد السادات وعهد عبد الناصر ، بحيث لم يقتصر إعجابهم بالكتاب على ما حواه من فضائح تمس العهد الساداتى ، بل كان من أهم أسباب ترحيبهم به ما احتواه من دفاع ، صريح تارة وضمنى تارة أخرى ، عن العهد الناصرى . ومن جهة أخرى فقد كان الناقدون الناقمون على الكتاب هم ، بلا استثناء تقريبا ، من مؤيدى سياسة السادات ، فلم يقتصروا فى هجومهم على تبرير تلك السياسة ، وإنما اغتنموا الفرصة لكى يجروا مقارناتهم المألوفة بين العهدين ، ويثبتوا (على طريقتهم الخاصة) إلى أى حد تمكن العهد اللاحق من إصلاح ما أفسده العهد السابق .

وهكذا كان هيكل ، فى نظر البعض ، شاهد صدق فضح عهدا فاسدا بأدلة لا تنكر ، وكان فى نظر البعض الآخر مفتريا على الحق مختلقا للأكاذيب ناشرا للباطل . ولم يكن أمام الجمهور إلا أن يختار بين هذين الطرفين ؛ فأنت إما مع هيكل ، فتصدق كل ما كتب ، وإما ضده ، فتكذب كل ما قال .

أما كاتب هذه السطور فيؤمن إيمانا راسخا بأن هذا الاستقطاب للجماهير بين ناصريين وساداتيين ، وهذا الاختيار المفروض عليها بين التصديق المطلق والتكذيب المطلق ، ما هو إلا مظهر خطير لضيق الأفق السياسى الذى فرض نفسه على عقولنا فى العقود الأخيرة . فالقضايا الحقيقية التى تثيرها عملية

« الفضح » فى كتاب هيكل ، لا تؤدى أبدا إلى الاختيار بين عهدين ، وإنما تؤدى إلى إلقاء ظلال من الشك على مرحلة بأكملها تشمل العهدين معا ، ويمكن أن تشمل غيرهما أيضا . أما الاختيار الآخر بين التصديق والتكذيب فلا بد للعقل الواعى أن يتجاوزه . والموقف الذى أدافع عنه هو أن فى وسع المرء أن يصدق الكثير جدا مما قاله هيكل ، دون أن يكون مع ذلك مؤيدا لهيكل .

هذا الكلام قد يبدو لغزا غير قابل للفهم ، ولكن المعنى المقصود يظهر بوضوح من مثال بسيط : لو فرضنا أن أحد أفراد عصابة « المافيا » قد انشق عن الجماعة وأفشى أسرارها للمحقق ، هل سيكون هذا المحقق ملزما ، إذا صدقه فيما أدلى به من معلومات ، بأن يؤيده وينحاز إليه ؟ إننى لا أود أن يؤخذ هذا التشبيه بحرفيته ، ولكن كل ما قصدته منه هو أن أضرب مثلا لتلك الحالات التى يمكن أن يكون فيها أحد طرفى النزاع صادقا ، ومع ذلك لا يستحق التأييد ولا التمجيد . وهذا المعنى الأخير هو الذى يلخص موقفى من كتاب هيكل ، الذى أصدق الكثير مما احتواه ، وأرحب به لأنه قدم إلى معلومات ما كانت لتصلنى لولا هيكل ، ولكنى فى الوقت ذاته لا أؤيد صاحبه ولا أشعر بتقدير كبير للبواعث التى دعته إلى تأليفه .

إن ما يهمنى ، منذ البداية ، هو أن يكون موقفى واضحا كل الوضوح . ولست أطالب القارئ ، منذ هذه اللحظة ، بأن يقتنع برأيى ، لأن هذا الاقتناع — إذا حدث — سوف تنسج خيوطه ببطء وتدرج خلال حلقات متتابعة من حديث طويل ، ولكن ما أطالب به وأصر عليه هو ألا يكون هناك أى لبس فى الموقف الذى سأتخذه . فالقضايا الحقيقية التى يثيرها كتاب هيكل هى ، كما قلت ، تلك التى لم يصرح بها ، أو تلك التى تؤدى إليها كتاباته دون أن يقصد . والمشكلة التى تطل علينا من بين غلافى هذا الكتاب أوسع من أن

تكون مشكلة هيكل وحده ، أو السادات وحده ، أو عبد الناصر وحده . إنها مشكلة أسلوب كامل فى الحكم ، كانت القضايا التى أشار إليها هيكل (ببراعة ودقة) مجرد عرض من أعراضه . وعلى الرغم من أننى سأشير فى كثير من الأحيان إلى ما قاله هيكل فى « خريف الغضب » فإن هدفى الحقيقى ليس التعليق على كتاب أو نقد مؤلفه ، بل إن هدفى هو الكشف عن تلك الظروف والأوضاع التى جعلت الكاتب ، والكتاب ، والرؤساء الذين يتحدث عنهم ، على ما هم عليه .

ولكى يزداد موقفى وضوحا ، فإنى أود أن أعلن منذ البداية أننى أؤيد هيكل فى الكثير مما قال ، ولكننى أستنتج من كل ما قاله أمورا مختلفة كل الاختلاف ، تجعلنى معارضا لاتجاهاته العامة فى معظم الأحيان . ولست أود أن يستنتج الساداتيون من معارضتى لاتجاهات هيكل أننى أقف معهم على أى أرض مشتركة ، بل إننى أرفض على نحو قاطع أية محاولة منهم لاستغلال انتقاداتى لهيكل من أجل دعم موقفهم . فأنا ، بلا مواربة ، معارض للساداتية بكل قوة . ولكن هذا لا يعنى أننى أنحاز إلى الطرف الآخر فى الاستقطاب السائد فى هذه الأيام ، بل إننى أكتب من منظور أوسع من هذا الاستقطاب بكثير ، ولا أقبل أن يجرنى أحد إلى طرف من أطرافه .

إن هيكل يقوم فى هذا الكتاب بمحاولة مستحيلة ، هى أن يقتطع عهدا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه . وأية نظرة مدققة إلى تاريخ العقود الثلاثة الأخيرة فى مصر تقنعنا باستحالة فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية . فلنسلم منذ البدء بأن لكل نظام فى الحكم شكلا ومضمونا . أما المضمون فهو اتجاه السياسات التى يتبعها ، وأما الشكل فهو الأسلوب الذى يطبقه من أجل تنفيذ هذه السياسات . وإذا كان من المسلم به أن مضمون العهد الساداتى مختلف اختلافا كبيرا عن مضمون العهد الناصرى ، فإن من

الحقائق التى ينبغى ألا تغيب عن الأذهان أن « شكل » الحكم ، أى أسلوبه ، كان متشابها إلى حد كبير وبعيد طوال ثورة ٢٣ يوليو ، ويحمل معظم ملامحه الأصلية حتى اليوم . ولقد تحدث هيكل أساسا عن الاختلاف — الذى ينبغى الاعتراف به — بين الاتجاهات السياسية عند عبد الناصر والسادات ، ولكنه كاد أن يغفل تماما الحديث عن التشابه بين أسلوب الحكم فى كلا العهدين . وفى هذا الجانب الأخير يعد السادات امتدادا لمنهج فى الحكم أرست قواعده ثورة ٢٣ يوليو ، ويجوز أنه أضاف إليه اجتهاداته « وابتكاراته » الخاصة هنا أو هناك ، ولكن جوهر الأسلوب واحد من البداية إلى النهاية — وأعنى به الحكم الفردى الذى يؤمن بحقيقة واحدة ، هى ما يعبر عنه الحاكم ، ويقمع كل ما عداها .

وهكذا فإن كل إشارات هيكل إلى أخطاء ممارسات الحكم الساداتية قد تكون صائبة ، ولكن الأمر الذى يغفله هو أن من المستحيل فصل النتيجة عن السبب ، وأن الصورة تكون ناقصة نقصا خطيرا لو اكتفينا بمظهرها الأخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة . ومجمل القول أن هيكل كان على حق عندما كشف العيوب الخطيرة للنظام الساداتى ، ولكنه كان مقصرا تقصيرا مخلا حين عزل هذا النظام عن سياقه ، ولم ينظر إليه على أنه جزء من ظاهرة أوسع منه بكثير — مع اعترافنا الكامل بأن هذه الظاهرة بلغت قمتها المأساوية فى العهد الساداتى على وجه التحديد .

أما الخطأ الرئيسى الثانى الذى اتسم به موقف هيكل ، والذى يعد بدون مبالغة عرضا من أعراض مرض أوسع نطاقا ، فهو أنه استثنى نفسه تماما من اللوم وصب اتهاماته على الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدا محايدا ، أو ناصحا أمينا لا يستمع إليه أحد . ولقد بحثت طوال الصفحات التى قاربت الستمائة فى كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتى ، فلم أجد . وكان

أقصى ما قاله عن نفسه هو أنه تصور أن السادات سيفعل كذا أو كذا ولكن تصوراته لم تتحقق ، ويكون المعنى الضمنى دائما هو أن الخطأ فى عدم تحققها يرجع إلى أن الطرف الآخر لم يستمع إلى نصحه ، أو لم يفعل ما كان هيكل يأمل أن يفعله . وكل من عاش هذه الفترة وتابعها بوعى ، ولم يفقد ذاكرته تحت وطأة الدعايات المتلاحقة التى تتخذ كل يوم موقفا مناقضا لليوم السابق ، يعلم حق العلم أن هيكل كان جزءا لا يتجزأ من معظم الأخطاء التى يعيبها على السادات ، وأن دوره قد بلغ ذروة التأثير فى سنوات التكوين الأولى ، التى تشكلت فيها معالم السياسة الساداتية الجديدة ، والتى ترجع إليها معظم التطورات اللاحقة . هذه حقيقة لا بد أن يثبتها التاريخ على نحو قاطع ، ومع ذلك فإن من يبحث عند هيكل عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات على ممارسات غرست البذرة الأولى والأساسية للشجرة التى نمت معوجة فيما بعد ، سيكون بحثه قد ضاع هباء .

عند هذه النقطة لا يملك المرء إلا أن يتساءل : ما الذى أتاح لهيكل كل هذه الفرص التى مكنته من أن يوجه نقدا موجعا للعهد الساداتى ، إذا كان هو ذاته قد أعطى هذا العهد ، بجهوده الواعية والمتعمدة ، معالمه الأولى التى حددت قسماته وملامحه لوقت طويل فيما بعد ؟ هنا لا يملك المرء إلا أن يفكر مليا فى قول هيكل ، فى مستهل كتابه ، إن فكرة الكتاب قد طرأت على ذهنه منذ اللحظة الأولى لدخوله المعتقل فى سبتمبر ١٩٨١ ، ثم قوله فى الفصول الأخيرة من الكتاب ، إنه لم يكن يتصور أن السادات سيقدم على اعتقاله ، على الرغم من كل ما بينهما من خلافات .

لقد كان لدى هيكل سلاح جبار يخشاه الجميع ، وهذا السلاح هو الذى جعله واثقا من أنه لن يعتقل . فلما تجاوز السادات الحد ، فى لحظة يأس لم يترك فيها اتجاها من اتجاهات الفكر والسياسة والعقيدة فى مصر إلا واعتقل أهم

ممثليه ، قرر هيكل أن يصوب إلى السادات طلقات سلاحه الجبار : الأرشيف .

لقد كان هذا السلاح ، منذ البداية ، نتاجا لظاهرة الحكم الفردى التى ازدهر فى ظلها هيكل . فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر ، كانت الأسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره ، وكان هو ذاته يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله ، مدركا بذكاء أن كل كلمة تسجل يمكن أن تكون مصدر قوة له فى يوم من الأيام . ولم تكن البراعة الصحفية وحدها ، ولا الذكاء الشخصى وحده ، هما اللذان أتاحا له هذه الفرص ، بل إن انعدام الديمقراطية وسيادة جو التكتم والقرار الفردى المفاجئ ، جعل من الضرورى أن يضيق نطاق المطلعين عن الأسرار إلى أبعد حد . وهكذا اطلع هيكل على ما لم يكن متاحا للآخرين ، أو مطروحا على الناس ، وهداه ذكاؤه إلى أن يسجل أولا بأول كل ما هو « خفى » و « ممنوع » . ومنذ أن تبين له أن الناس يتلهفون على قراءة الأسرار التى لا يعرفها أحد صباح يوم الجمعة ، أدرك هيكل أهمية « سلاح الأرشيف » من حيث هو مصدر قوة وحماية له فى نفس الوقت .

بل إن أحد الكتّاب الساداتيين ، ممن كانوا على صلة وثيقة بهيكل[1] ، يذهب إلى أن سلاح المعلومات كان يستخدم عند هيكل فى العطاء أيضا . فهو يرى أن من أهم أسباب المكانة الخاصة التى اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر ، منذ أول سنوات الثورة ، أنه كان يزود زعيم الثورة بقدر هائل من المعلومات التى تتجمع لديه من قراءاته الواسعة ، والتى كان عبد الناصر ـــ وهو لا يزال ضابطا حديث العهد بالحكم ـــ فى أشد الحاجة إليها . وهكذا بدأ هيكل

---

(١) انظر : صلاح منتصر : « الأستاذ هيكل . شاهد أم شريك ؟ » الأهرام ١٩٨٣/٥/١ .

بالعطاء ، وفيما بعد سددت له هذه الديون أضعافا مضاعفة ، عن طريق فتح خزائن الأسرار كلها له . وهكذا كان « سلاح الأرشيف » ذا حدين : يعطى أولا ، ثم يأخذ بعد ذلك بلا حدود .

ولكن ، على الرغم من كل هذه الفرص الاستثنائية التى أتيحت لهيكل وحده ، فى ظل أسلوب حكم فردى مطلق ، وكشفت له عن القوة الهائلة التى تكمن فى « سلاح الأرشيف » ، فإن المرء لا يملك إلا أن يشعر بوجود سر خفى فى تلك المقدرة الهائلة على جمع المعلومات واختزانها وإعادة استخدامها واستثمارها فى الوقت المناسب . لقد سَخَرَ هيكل من الضباط الذين قلبوا بيته الريفى ، وقت اعتقاله الأخير ، بحثا عن أوراقه السياسية ، مؤكدا لهم أن الرئيس ذاته يعلم أنه (أى هيكل) لا يحتفظ بشىء من أوراقه فى بيته ، وأنه يبعث بها أولا بأول إلى خارج البلاد . وهكذا كان الأرشيف بالنسبة إلى هيكل ، بالإضافة إلى كونه مصدر قوة ، تأمينا على الحياة ، وضمانا ضد أى شكل من أشكال الاضطهاد : فهو يحمل معه أسرار الجميع ، بالوثائق ، ويوم يمسه سوء ستعلن هذه الأسرار وتفضح كل شىء ، ومن هنا كان الحرص على أن تظل خارج البلاد . ولكن يظل السؤال قائما : هل يستطيع فرد واحد ، مهما كان ذكاؤه وتشعب قدراته ، أن يجمع كل هذه المعلومات ، ويرتبها بهذه الدقة ، ويبعث بها أولا بأول إلى الخارج ؟ لست أدرى . ولكننى كلما أمعنت الفكر فى هذه الظاهرة بدا لى أنها أعقد وأوسع نطاقا من إمكانات أى فرد ، بل من إمكانات أى جهاز فى دولة متخلفة ، وخيل إلىّ أننا نجد أنفسنا هنا على مستوى يكاد يصل إلى مستوى أجهزة المخابرات فى الدول الكبرى .

وهكذا فإن هيكل عندما وجد نفسه معتقلا ، وحين تبين له أن السادات تجاوز الحدود وتحدى قدراته ، سلط عليه أرشيفه الجبار ، وحقق لنفسه

انتقامه الشخصى من حاكم كان بيته بالفعل من الزجاج ، وكان متهورا ويائسا عندما اختار هيكل بالذات ليكون واحدا ممن يرميهم بالحجارة .

على أن الأمر اللافت للنظر ، والذى تتجلى فيه سخرية الأقدار بحق ، هو أن « سلاح الأرشيف » ، مثلما أنه مصدر قوة هيكل ، هو أيضا مكمن الضعف فيه . ذلك لأن من يستخدم هذا السلاح يستطيع بأكثر الإمكانات تواضعا ، أن يصيب هيكل فى مقتل . ويكفى أن يرجع بانتظام إلى قائمة كتاباته فى أواخر الأربعينات ، ثم فى مختلف مراحل الخمسينات والستينات ، وأخيرا فى أوائل السبعينات ، ويكفى أن يقارن هذه الكتابات بعضها ببعض ، أو بما يظهر منها فى المرحلة الراهنة ، لكى يجد لديه مادة هائلة تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . وحسبنا أن نضرب لذلك مثلا واحدا مما نشر فى الصحف المصرية أخيرا . فها هو ذا كاتب يتجاسر فيقول : « إن تاريخ الأستاذ محمد حسنين هيكل صفحة سوداء فى تاريخ مصر . لقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة أجنبية ، وكتب ذلك فى كتابه « كلمتى للتاريخ » . كما اتهمه مايلز كوبلاند فى كتابه : « بغير عباءة أو خنجر » بأنه كان عميلا مخلصا . كما اتهمه خروشوف بنفس التهمة وذكر له قيمة المبالغ والشيكات التى تسلمها من وكالة المخابرات المركزية ، وكان ذلك عندما سافر سيده (يقصد عبد الناصر) إلى روسيا واصطحبه معه فى هذه السفرة ، فلما واجهه نيكيتا خروشوف بهذه الفضيحة المرة اضطر أن يسافر فى اليوم التالى عائدا إلى مصر »[١] .

هنا نجد « سلاح الأرشيف » يستخدم ضد أبرع من أتقنوا استخدامه . وإذا كنا لا نملك الحكم على مدى صحة الوقائع الواردة فى هذا الكلام ، فإن

---

(١) انظر : محمد على أبو طالب : « إنى أتهم ! » ـ الأخبار ١٩٨٣/٤/٣٠ .

الاتهامات التى تحدث عنها الكاتب قد وجهت بالفعل إلى هيكل على أيدى نجيب وكوبلاند وخروشوف ، وكل ما فعله الكاتب هو أنه رجع إلى الوراء قليلا مقلبا صفحات الجرائد فى السنوات الماضية . وما هذا إلا مثل واحد يكشف عن الوجه الآخر لسلاح الأرشيف ، عندما يسدد إلى عنق صاحبه .

الفصل الثانى

من الذى يشتم مصر

أثار كتاب هيكل ، أو على الأصح الجزء الضئيل الذى نشر منه فى مصر ، عاصفة عاتية من ردود الفعل . وفى رأيى أن دراسة ردود الفعل هذه ، باتجاهاتها المختلفة وتشعباتها الكثيرة ، تزودنا بذخيرة هائلة نستطيع من خلال تحليلها المتعمق ، أن نفهم الكثير عن طبيعة التشويه الفكرى الذى أصبحت بلادنا تعانيه ، وعن شكل التضليل الإعلامى الذى يسلط على عقولنا ليل نهار . ففى ردود الفعل هذه تتحدد مواقف كثيرة وتنكشف وتظهر حقيقة الأفكار التى ظلت كامنة ، مستترة ، مغلفة بشتى أنواع الأقنعة الخداعة . ومن خلال ردود الفعل هذه يتضح اتجاه المصالح الحقيقية فى مصر ، إذ كان معظم المدافعين عن السادات من المنتفعين منه ، أو من أصحاب المصالح التى ازدهرت فى عهده ، وإن لم يمنع ذلك من وجود بعض المتأثرين بطوفان الإعلام . ومن خلالها ينكشف تهافت وتناقض الشخصيات التى كان لها دور مصيرى فى تاريخ مصر ، ودور أساسى فى تشكيل عقلها ، وهو حكم لا أستثنى منه هيكل نفسه . ومن خلالها تظهر للعيان جريمة الحكم الفردى التى لا تغتفر ، إذ يتبين لنا بوضوح مدى التزييف الذى طرأ على الوعى السياسى المصرى ، متمثلا فى عدد غير قليل من كبار مثقفيه ، بعد ثلاثين عاما من حكم يفترض أنه ثورة تستهدف ، على وجه التحديد ، تحرير الوعى من أوهامه .

وأخيرا فمن خلال ردود الفعل نستطيع أن ندرك إن كان عهد السادات قد انتهى حقا ، أم أن آثاره ما زالت تدب فيها الحياة بكل عدوانية وتحفز .

إن دراسة العقل المصرى وتحليل سماته كما تتمثل فى اتجاهات ردود الفعل على هيكل ، هى فى نظرى أهم الأهداف . ولم يكن كتاب هيكل فى هذه الحالة إلا فرصة لكشف أساليب التفكير المستورة ، التى تظل فى حالة كتمان حتى تطرأ أزمة أو محنة تفجرها . وهكذا سوف أتوقف طويلا عند ردود الفعل ، وأخضعها لتحليل سأحاول أن يكون دقيقا ، آملا أن أتمكن عن طريقها من إلقاء الضوء على بعض سمات العقل المصرى — التى تجمعها روابط مشتركة كثيرة مع العقل العربى بوجه عام — بعد ثلاثين سنة من حكم ثورة ٢٣ يوليو .

« هذا الرجل « السادات » قد اخترناه جميعا زعيما لهذا البلد ، واختيار زعيم فيه تجسيد للشعب الذى اختاره ، وبالتالى فإن كل ما يقال عن هذا الزعيم يعتبر فى حقيقته نيلا من الشعب الذى اختاره » .

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير فى القانون ، فى اجتماع للمجلس الأعلى للصحافة خصص لمناقشة كتاب هيكل ، ونشرته جريدة « الأهرام » فى ٢٩ إبريل ١٩٨٣ . والأساس الذى يبنى عليه تفكير أستاذ القانون هو أن الحاكم تجسيد لبلده ، ما دامت قد اختارته بإرادتها ، ومن ثم فإن أى هجوم من هيكل أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها .

هذا النوع من التفكير بلغ ، فى السنوات الأخيرة ، من الانتشار حدا يحتم علينا أن نتوقف طويلا عنده . فما من أحد منا إلا وتعرض مرارا لتلك التجربة المثيرة والمستفزة ، تجربة المناقشة مع شخص يؤكد أن أى نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده ، وأن الوطنية الحقة تحتم على المرء ألا يسىء إلى الحكام .

ولا شك أن عبارة أستاذ القانون ، السابقة ، هى تعبير نموذجى عن وجهة

النظر هذه :

أ ـــ فهو يستخدم لفظ « الزعيم » مرتين ، وهى نفس الكلمة التى كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر) والفاشيون على موسولينى (الدوتشى) . وليس هذا استخداما اعتباطيا ، إذ كان يمكنه أن يقول : الحاكم ، أو رئيس الدولة ، ولكن إصراره على لفظ « الزعيم » هو جزء لا يتجزأ من العقلية التى توحد على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده .

ب ـــ وهو يرى هذا الزعيم « تجسيدا » للشعب ، و لم يقل « رمزا » ، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز إليه (اللون الأخضر رمز لإمكان مرور السيارات مثلا) ، بل تفصل بينهما مسافة ما ، أما التجسيد فهو اندماج كامل . بل إن الزعيم يصبح فى هذه الحالة « خلاصة » شعبه وأنقى تعبير عنه . وهذا يفترض ، بطبيعة الحال ، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختلاف ولا تباين فى الرأى أو الاتجاه ، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له . ومن هنا فمن المؤكد أن الإنجليز ، مثلا لا بد أن يسخروا ممن يرى فى « تاتشر » تجسيدا لهم ، إذ أنها حتى لو كانت تجسد المحافظين ، فماذا نقول عن العمال والأحرار ؟ وفضلا عن ذلك فإن الزعيم الذى يجسد شعبه هو ، بحكم تعريفه ، غير قابل للتغيير ، وإلا فكيف نتصور أن يتخلص شعب ممن يجسده ؟ .

جـــ وأخيرا ، فإن أستاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات ، فى أقل من ثلاثة أسطر ، عن « اختيار » الشعب للزعيم . وهكذا فإنه ، بكل وقار القانون وهيبة الأستاذية ، يعلن ثقته المطلقة وتصديقه الكامل لاستفتاءات ٩٩,٩٪ ، ويرى فيها أساسا يسمح للمرء ، بأن يقول باطمئنان تام وبضمير مستريح : « هذا الرجل قد اخترناه جميعا » .

هذه الكوارث أو الفواجع الفكرية تتجمع كلها فى أقل من ثلاثة أسطر ،

وتعبر بوضوح صارخ عن تدنى مستوى الوعى السياسى والاجتماعى عند من يفترض فيهم أن يكونوا معلمين ومرشدين لغيرهم فى هذا الميدان ، وهى فى واقع الأمر أبلغ دليل على نوع العقول التى توحد بين الحاكم وبلده ، وترفض أى نقد للحاكم بحجة أن هذا النقد إهانة لوطنه ونيل منه .

على أن لهذا اللون من التفكير ، أعنى التوحيد بين الحاكم والوطن ، وجها آخر ربما كان أشد حدة ، هو ذلك الذى يشيع بين المصريين المغتربين على وجه التخصيص . فظروف الاغتراب تزيد من قوة التوحيد بين البلد وحاكمها ، ومن هنا كان من ردود الفعل الأكثر شيوعا ، بين المصريين العاملين فى البلاد العربية بوجه خاص ، استنكار ما كتبه هيكل باعتباره « شتيمة لمصر » .

هذه ظاهرة لم تتمثل فى حالة هيكل وحده ، بل تعرض لها كل من يكتب كتابة نقدية عن الأوضاع المصرية فى إحدى الصحف العربية . كما أن من يستخدمون هذه الحجة ليسوا هم المواطنين المغتربين العاديين فحسب ، بل إن المرء يجدها تتردد على أعلى المستويات . وأستطيع ، من تجربتى الشخصية ، أن أؤكد أن النسبة الغالبة من أساتذة الجامعات المصريين العاملين فى بلد كالكويت تحتج بشدة على أى مقال يوجه نقدا لحاكم مصر أو حكومتها ، باعتباره هجوما على مصر . وهكذا فإن شيوع هذه الحجة بين المغتربين يفوق بكثير انتشارها داخل مصر ذاتها ، ولذا كانت تحتاج إلى وقفة متأنية تناقش الأسس التى ترتكز عليها بهدوء .

١ — أول أساس لهذه الحجة هو ذلك الذى أوردناه من قبل ، وأعنى به أن الحاكم تجسيد لبلده . ويزداد الحرص على فكرة التجسيد هذه عندما يكون الشخص مغتربا ، بحيث تتضاعف حساسيته إزاء أى نقد يوجه إلى الحاكم . وكم من مصرى مغترب ينتقد كتاب هيكل ، على سبيل المثال ، انتقادا مريرا ، لا لأنه غير مقتنع بما يتضمنه من وقائع ، بل لأنه ، حتى لو كانت كل كلمة

فيه صحيحة ، يسيء إلى صورة « مصر » .

إن قليلا من التفكير يقنعنا بأن الحريص حقا على سمعة بلاده هو الذى لا يوحد بينها وبين حاكمها . وفى حالة بلد كمصر يكون من المخجل حقا أن يساوى المرء بين ذلك التاريخ العريق ، والحضارة الأصيلة ، بين بلد النيل والأهرام والأزهر ، وبين تصرفات حكام أفراد يمكن أن يكون الكثيرون منهم مصابين بجنون العظمة أو داء الاستبداد والبطش والادعاء . إن من يعتز ببلده وتاريخه حقا هو ذلك الذى يعلن فى كل مكان ، وأمام الجميع ، أن مصر ليست مسئولة عن أخطاء حكامها ، وينزه بلده عن تلك النقائص التى يمكن أن يتصف بها هذا الحاكم أو ذاك . أما ذلك الذى ينصب نفسه محاميا عن كل خطأ يرتكبه الحاكم ، متوهما أنه يدافع على هذا النحو عن وطنه ، فهو فى الواقع الذى يسيء إلى هذا الوطن أبلغ إساءة . ولو اتخذت مسألة التوحيد بين الحاكم والوطن قاعدة عامة ، لكان علينا جميعا أن نحمل بلدا كمصر أخطاء فاروق والخديوى توفيق والحاكم بأمر الله وقراقوش .

٢ — ولكن أصحاب هذا الموقف يلجأون ، عادة ، إلى إضافة حجة أخرى ، هى الإشارة إلى الفارق بين النقد داخل الوطن والنقد خارجه . ففى استطاعتك أن تنتقد الأوضاع كما تشاء ما دمت فى بلدك ، أما إذا كنت فى بلد آخر فإن الواجب يقضى عليك بأن تمتنع عن النقد ، بل تتصدى له بكل قوة ، حتى لا تترك « للغرباء » فرصة « الشماتة » فى وطنك . ويشارك الحاكم ذاته فى هذه الحجة : فهو يهاجم بكل العنف أولئك الذين « يشتمون مصر » فى الخارج ، وربما استخدم التعبير المألوف « نشر الغسيل » ، ويجد هذا الرأى صدى لدى الكثيرين ممن يتقبلون ما يقرأونه أو يسمعونه بلا تفكير . ولكن الأمر المؤسف هو أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء ، بل إن نسبة كبيرة من المثقفين الذين يشغلون مراكز علمية واجتماعية مرموقة تردد فى كل

مناسبة هذا المبدأ : « انتقد بلدك فى الداخل كما تشاء ، ولكن عليك فى الخارج أن تدافع عنها (والمقصود هنا بالطبع : تدافع عن حكامها) بـالحق أو بالباطل ، ولا تسمح لأحد بمهاجمتها (والمقصود : مهاجمة حكامها) » .

فلنناقش إذن هذا المبدأ الخطير ، المنتشر على أوسع نطاق بين أوساط المصريين المغتربين على مختلف مستوياتهم :

أولا : هذا المبدأ يفترض أن العرب ، الذين يقيم هؤلاء المصريون فى بلادهم ، هم بالنسبة إليهم « غرباء » . والأمر اللافت للنظر حقا هو أن نفس هؤلاء الذين يفكرون بهذا المنطق يمكن أن يتحدثوا باستفاضة ، فى مجال آخر ، عن وحدة العروبة والمصير المشترك والحواجز المصطنعة بين الأقطار فى الوطن العربى الواحد ، ولا يدركون التناقض الصارخ بين حديثهم المتحمس هذا وبين نظرتهم إلى العرب على أنهم « غرباء » لا ينبغى أن تطرح مشاكل مصر الداخلية أو الخارجية أمامهم ، ولا ينبغى أن تتاح لهم فرصة « الشماتة » فى مصر . فكيف يسمح هؤلاء لأنفسهم بأن يكونوا إقليميين إلى أقصى حد فى جانب ، ووحدويين متحمسين فى جانب آخر ؟ أليس من الواضح أن الإيمان الحقيقى بوحدة العروبة يحتم على المرء ألا يجد فارقا بين المصرى وأى عربى فى نقد الممارسات الخاطئة لأى نظام من الأنظمة ، سواء أكان هذا النظام مصريا أم لم يكن ؟

إن العرب ، من غير المصريين ، لا يهتمون بأوضاع مصر من أجل « الشماتة » ، كما يتصور قصار النظر هؤلاء ، بل إن ما يحدث فى مصر من مد وجذر ، ومن تقدم أو تخلف ، هو الشغل الشاغل لكل عربى لسبب بسيط : هو أنه لا بد ، عاجلا أو آجلا ، أن ينعكس على بلاده إيجابا أو سلبا . وما من عربى مستنير إلا ويتابع سياسة مصر بكل ما يملك من ترقب واهتمام ، لأنه يعلم أن مفتاح المنطقة كلها هناك ، ولأنه يخشى على بلده من أن يلحقها أى مكروه

يصيب مصر قبلها . وهكذا فإن الاهتمام الزائد الذى يبديه أى عربى بأوضاع مصر ، يظل فى واقع الأمر اعترافا بمكانة مصر الرئيسية فى الوطن العربى ، حتى لو اتخذ شكل انتقاد مرير لأوضاعها . فلماذا لا يبدى أحد اهتماما بانتقاد ما يحدث داخل موريتانيا أو جيبوتى مثلا ، حتى لو تراكمت الأخطاء فى ممارسات حكام هذين البلدين ؟ .

ثانيا : يفترض هذا المبدأ أن فرص النقد مكفولة داخل مصر . ولكن أصحابه يخدعون أنفسهم ، فى الواقع ، خداعا مكشوفا حين يتظاهرون بالوطنية فيقولون : انتقد حكام مصر فى داخلها كما تشاء أما فى خارجها فلا . من الذى يستطيع أن ينتقد حكام مصر فى داخلها « كما يشاء » ؟ لقد ظل كتاب مصر ومثقفوها الذين يحملون هموم مصر على أكتافهم يحاورون ويناورون.. لمدة ثلاثين عاما ، كلما وجدوا أمامهم ممارسات خاطئة ، وكم من نقد كان يمكن أن ينقذ البلاد من كوارث رهيبة ، عوقب موجهه أو أرغم على السكوت ، أو اضطر — على أحسن الفروض — إلى التعبير عنه بحذر والتواء حتى يمكن أن يجد طريقه إلى الناس وسط الرقابة الصارمة . فلماذا نغالط أنفسنا ونتصور أن من ينتقد فى الخارج يفعل ذلك طواعية ، وإنه كان يستطيع أن ينقد فى الداخل ولكنه اختار — لمصالح خاصة — منبرا للتعبير خارج بلاده ؟

ثالثا : من الممكن أن يدرك المرء ، حين يعمل فكره قليلا ، أن معظم أصحاب هذا المبدأ يقومون بعملية إسقاط لخلافاتهم الصغيرة فى العمل ، ومنافساتهم الشخصية مع جنسيات عربية أخرى فى نطاق العلاقات الفردية الضيقة ، على موقفهم السياسى العام . فكل منهم يتصور أن ظهور نقد للأوضاع المصرية فى جريدة صباحية سيجعل زميله أو رئيسه العربى فى المكتب أو المصنع يكسب نقطة على حسابه حين يفتح الجريدة ، وينتهز

الفرصة للتشفى منه . وهذه نظرة طفولية ضيقة تخلط بين العلاقات الشخصية والشئون الوطنية العامة ، وإن كانت للأسف واسعة الانتشار حتى على أعلى المستويات .

إن هذا الخلط بين المستوى الشخصى للسلوك ، وبين تقييم العمل السياسى العام ، هو آفة من أخطر الآفات فى تفكيرنا المعاصر ، وهو علامة واضحة على أن تربيتنا السياسية بعيدة كل البعد عن ذلك النضوج الذى لا بد منه لقيام نهضة حقيقية . وسوف تتاح لنا ، خلال معالجتنا لجوانب الموضوع الذى نتناوله فى هذه الدراسة ، فرص كثيرة لرؤية أمثلة أخرى لهذا الخلط . ويكفى أن نقول الآن إن الكلام عن « التشفى » أو « الشماتة » حين يكون الأمر متعلقا بالسياسة العامة لبلد من البلاد ، هو مظهر للبدائية فى التفكير . أما « نشر الغسيل » وهو للأسف تعبير ما زال يستخدمه مسئولون كبار — فهو تعبير مضحك ومؤسف فى آن واحد . وليقل لى هواة هذه التعبيرات : هل سمع أحد منكم واحدا من أنصار ريجان أو ميتران يتحدث ، فى معرض تقييمه لسياسة بلاده ، عن « الغسيل » ؟

إن الفكرة الكامنة من وراء هذا هى فكرة « الستر » ، وهى مبدأ أخلاقى مذموم حتى على المستوى الفردى . ففى أخلاقنا الشعبية نزوع شديد إلى التغطية على العيوب ، إلى درجة أن افتضاح هذه العيوب ومعرفة الآخرين بها هو فى نظرنا شر يفوق العيوب نفسها . وكثيرا ما نتصرف بحيث نتغاضى عن أخطر أنواع الآثام ما دامت « مستورة » ، ومن هنا كان « الستر » أمنية غالية فى تعبيراتنا الشعبية المألوفة . ولكن الخطأ الفكرى والأخلاقى يتضاعف حين ننقل هذا المبدأ إلى ميدان السياسة ، فندعو مواطنينا إلى السكوت على أوضاع جائرة حتى لا تفتضح أمام الآخرين ، ونطالبهم بألا « ينشروا الغسيل » بدلا من أن نطالب أنفسنا بأن نبقى غسيلنا نظيفا على الدوام .

وهكذا تكشف لنا ردود الفعل على كتاب هيكل عن أخطاء فكرية فادحة ترسخت فى عقولنا وسرت فيها مسرى البديهيات التى لا تناقش ، ويتبين لنا أن توحيدنا بين تصرفات الحاكم وبين سمعة بلاده هو أبلغ دليل على أن لعبة الحاكم الفرد لا تقتصر على من يمارسها بنفسه ، بل إن الذين تمارس عليهم هذه اللعبة قد اندمجوا فيها وانتقلت عدواها إليهم دون أن يشعروا ، وإن الخاضع للاضطهاد قد تقمص الكثير من أفكار من يضطهده ، وإن الطغيان أصبح جزءا من تكوين المحكوم ، لا الحاكم وحده ، إلى حد أنه أصبح يوحد نفسه ، وبلده ، وكرامته ومكانته ، مع شخص الحاكم المطلق ، ويقدم بتفكيره الخاص أقوى دعامة لذلك الاستبداد الذى يكتوى بناره ليل نهار .

الفصل الثالث

لعبة الأحياء والأموات

حين نمضى فى رحلة الكشف عن مظاهر تزييف الوعى وانهيار العقل والمنطق ، كما تمثلت فى ردود الفعل على كتاب هيكل ، ستظهر لنا أمثلة أخرى مؤسفة لذلك الخلط الذى أصبح سائدا على كافة الأصعدة ، بين أساليب الناس فى التعامل معا على المستوى الشخصى ، وأساليبهم فى النظر إلى أمور المجتمع العامة ، على المستوى السياسى . ولكنا سنكتشف أيضا أن قدرة المزيفين على الخداع وصلت إلى حد من الجرأة ، بل من الصفاقة ، يفوق كل تصور ، وأنهم ما كانوا ليبلغوا هذا المدى لو لم يكونوا قد اعتادوا النظر إلى الجمهور على أنه قطيع ينقاد فى أى اتجاه يفرض عليه . وهذا التعالى على الناس ، والاعتقاد بأن أية أكذوبة يمكن أن تمر عليهم ، ليس إلا النتيجة الطبيعية لجو القهر المخيم منذ أمد بعيد ، والذى أشاعه عهد لا يجعل للجماهير من دور سوى التصفيق والتصديق .

لنستمع إلى كاتب كبير كان له يوما دور بارز فى الحركة الوطنية المصرية ، ولكنه انجرف فى تيار التضليل السياسى منذ السبعينات ، يعلق على كتاب هيكل فيقول : « لقد اغتالوا حياته فى ٦ أكتوبر ، عيد انتصاره الحربى ، وفى ٢٥ إبريل عيد انتصاره السلمى يحاولون اغتيال سمعته .. إننا نصغر فى عيون الآخرين ، ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب فى أيديهم الموازين .. إن ما كتبه هيكل .. ليس تحليلا ، إنما هو التشهير بعينه ،

هو الاعتداء على حرمة رئيس مات .. وعلى سمعة وطن بأسره .. من قال إن كاتب التاريخ من حقه أن يهدر الحرمات ، ويشهر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ؟ من قال إن كتابة التاريخ تعنى العدوان على سمعة الذين هم فى ذمة التاريخ ، ومتى كانت كتابة التاريخ تمزيقا للأشلاء ؟ »(١) .

ولنستمع ، بعد ذلك ، إلى أستاذ مرموق فى الطب ، وأمين عام لنقابة الأطباء ، وهو يهاجم الصحيفة التى نشرت مقالات هيكل الأولى قبل أن تصادر ، فيقول : « هذه الصحيفة صدرت فى ظل الحريات وقانون الأحزاب التى أرسى قواعدها من أرادوا نهش لحمه حيا وميتا لا لشىء إلا لأنه اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلب أمته وأعلن عداءه للشيوعية .. » .

ويواصل الطبيب الكبير كلامه قائلا : « لا أظن أن مصريا لم يتابع جنازة السادات و لم تدمع عيناه و لم يكتو قلبه لوعة وحزنا على النهاية التى أودت بحياة رئيس مصر ورمزها » .. ثم يقول « لقد بلغ به الغضب قمته عندما رأى من مد يديه إليهم بالخير وفتح لهم أبواب الحرية وسمح لهم بالتعبير عما يجيش فى صدورهم من رأى يمدون إليه أيديهم بالشر وأقلامهم بالقذف »(٢) .

وأخيرا ، يتخيل كاتب لم يشأ ذكر اسمه أن السادات قد تولى الرد على هيكل ، فيتحدث بلسانه قائلا : « كرهت لإنسان أن ينزع مثلى من منامه فأوقفت زوّار الفجر ، ومَقَتُّ لآمن انتهاك حرمته فأحرقت أشرطة الأسرار ومنعت التسجيل والتصنت ، وتصديت لشريعة الغاب فأغلقت المعتقلات ، وآمنت بحق الدفاع عن النفس فأعليت سيادة القانون .. واغفروا لى إن كان

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوى ، مقال بعنوان « كفى ! » — الأهرام ١٩٨٣/٤/٢٧ .
(٢) د. أسامة عبد العزيز ، مقال « سقطة الخريف » — الأخبار ١٩٨٣/٤/٢٦ .

قد دفعنى بعض الأبناء إلى ما لا يمكن أن يحبه ويرضاه أب لكل الأبناء »[١] .

نماذج ثلاثة لم أخترها لكى أناقش أصحابها أو أرد عليهم ، بل لكى يفتح القارئ عينيه ، من خلالها ، على الانهيار الفكرى الذى تولده عهود الانفراد بالسلطة والرأى الواحد . فما هى العيوب الفكرية التى تكشف عنها هذه النماذج ؟

أولا : حين يتحدث النموذج الأول عمن يكتبون بلا وفاء ، فإنه يسقط الاعتبارات الأخلاقية الشخصية على التقييم السياسى ، وكأن المؤرخ ملزم ، من أجل الوفاء للحاكم إذا كان قد أسدى إليه خدمات معينة ، بأن يغمض عينيه عن عيوب هذا الحاكم ويغش جمهوره عندما يصدر حكما عليه . ثم يزداد الخلط والتشويش (الذى لا أظنه كله متعمدا ، بل هو يعبر عن الطريقة التى أصبح يفكر بها الكاتب نفسه) حين يتحدث عن « سمعة الوطن » ، وإهدار الحرمات ، والتشهير بالرجال والنساء . ويصل الضباب الفكرى إلى ذروته عندما يستخدم الكاتب تعبيرات إنشائية لا مجال لها على الإطلاق فى السياق الذى يتناوله ، وكل ما تؤدى إليه هو إيجاد جو من التعاطف مع « الضحية » ، أو جو من النفور من « المعتدى » ، مثل « العدوان على سمعة الذين هم فى ذمة التاريخ » أو « تمزيق الأشلاء » . هكذا أصبح للتاريخ « ذمة » ، وهذه الذمة تحمى الحاكم من أى نقد ، وتجعل من يمس الحكام اللاجئين إليها « ممزقا للأشلاء » !

ثانيا : أما النموذج الثانى فأمره أغرب . إنه يؤكد ببساطة شديدة أن السادات ، حين أعلن عداءه للشيوعية ، إنما اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلبه . وهكذا يقرر الطبيب المرموق أن مطلب الشعب المصرى

---

(١) مقال بعنوان « معهم كل الحق .. نشأتى عقدتنى » ، ١٠ مايو ١٩٨٣ .

ليس المعيشة الآدمية ولا المواصلات السهلة ولا المسكن المعقول ولا الخبز الضرورى ، وإنما هو العداء للشيوعية . ولا يخجل الكاتب من أن ينسب اللوعة والحزن إلى المصريين جميعا فى تلك الجنازة التى شهد الأمريكان أنفسهم بأنها قوبلت من الشعب بعدم اكتراث كامل . وأخيرا ، فإن الكاتب ينظر إلى الحاكم على أنه ولى النعم ، ويصل به تقديس الفرد ، واحتقار الجماهير ، إلى حد القول إنه هو الذى يمد يديه بالخير ، وهو الذى يفتح أبواب الحرية ، وهو الذى يسمح للناس بالتعبير — ويرى هذا كله وضعا طبيعيا يدافع عنه بحرارة . وفى مقابل ذلك فإن المعارضين الجاحدين لا يردون على هذا الخير الذى يتصدق عليهم الحاكم به إلا بالشر والقذف .

إن مستوى الوعى السياسى هو الذى يهم فى الموضوع كله . فها هو ذا إنسان لا بد أنه سافر مرارا إلى الخارج ، وقرأ ذلك الكم الرهيب من « الشر والقذف » الذى تحتشد به صحف حزب العمال ضد تاتشر أو صحف الديجوليين ضد ميتران ، ورأى نماذج لا حصر لها للمعارضة القاسية الضارية ، التى تتقبلها الحكومات بكل ترحيب . ومع ذلك فهو لا يقبل لبلده إلا أسوأ نموذج : ذلك الذى يكون فيه الحاكم مانحا للخير ، والمعارض الناقد معتديا أثيما .

أنقول إنها عقلية عصر الانفتاح ، منعكسة على ضمائر أقطاب العهد ؟ أنقول إن الطبيب الكبير يدافع عن عهد يتيح له أن يتقاضى عن المريض الواحد ، فى كشف يستغرق دقائق قليلة ، مقدار ما يتقاضاه خريج الجامعة الحديث ، إذا عُيِّن موظفا حكوميا ، ليعيش به فى شهر كامل ؟ لست أدرى ، وكل ما أعرفه هو أنها محنة فكرية ، قبل أن تكون أزمة فى الضمائر .

ثالثا : وأخيرا ، فإن النموذج الثالث ، الذى يقدم إلينا حديثا متخيلا بلسان السادات ، يكرر بلا مواربة أفكار النموذج الثانى عن الحاكم من حيث

هو « ولى النعم » ، ويقدم مجموعة غريبة من الأحكام لا تصدر إلا عن شخص يفترض أن قراءه قد ألغيت عقولهم وحرموا حاسة الفهم : يؤمن بأن قارئه قد نسى تماما أن عهد السادات كان فيه أيضا زوار للفجر ، وأن كثيرا من القضايا السياسية قدمت فيه بناء على شهادة أجهزة تجسس وتصنت ، وأن سيادة القانون كانت تخرق حتى على مستوى أعضاء مجلس الشعب ، ولكنه يستدرك بعد ذلك فيستخدم لغة « الآباء والأبناء » فى وصف حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ، ويصور المسألة كما لو كان الأب الحنون ، كبير الأسرة الواحدة ، قد اضطر متألما إلى أن يكون صارما مع بعض أبنائه من أجل صالحهم .

إن جرأة الإعلام على التزييف والمغالطة ، حين تصل إلى هذا الحد ، فلا بد أن يكون فى الأمر كله خطأ فادح . صحيح أن الإعلام فى العالم كله يبالغ ، ويخرج عن الحقائق هنا وهناك ،غير أن ثمة حدا أدنى من الاحترام لعقول الناس — ولكن هذا الحد الأدنى لا أثر له ، للأسف ، فى إعلام عهود الحكم الفردى المطلق ، ومن ثم فإن الكاتب يستبيح لنفسه أن يلوى الحقائق كما يشاء ، ما دام يؤمن بأن عقول الناس قد ألغيت منذ أمد بعيد .

ومع هذا كله ، فإن هناك ما هو أفدح وأخطر ، وأعنى به الحديث المتكرر عن « نبش القبور » ، والسؤال الذى أصبح التفكير السياسى القاصر فى هذه الأيام ، يطرحه كما لو كان قضية بالغة الأهمية ، وأعنى به : هل ينبغى أن ينقد الحاكم حيا أم ميتا ؟

لقد رأينا فى النماذج الثلاثة السابقة إشارات متكررة إلى استنكار الهجوم على الحاكم بعد موته ، ولكن لا بد لنا أن نقدم نماذج أخرى لهذا الاستنكار ، حتى يدرك القارئ مدى انتشار هذا اللون من التفكير . فالكاتب موسى صبرى ، وهو من أكبر الدعاة الساداتيين ، يتحدث حديثا طويلا عن « حرمة

الموت والموتى » ، وعن « نبش القبور » و « انتهاك الحرمات »[١] . ولكن الأخطر من ذلك بيان نقابة الصحفيين فى مصر تعقيبا على كتاب هيكل : « إن ما نشر يعد .. اعتداء على حرمة الموتى وتعرضا لحياتهم الخاصة ومخالفا لتقاليد المجتمع الدينية والأخلاقية » .

ولقد استنكر هيكل — وكان على حق فى ذلك — استخدام رهبة الموت وقدسيته من أجل تبرئة الحكام وإبعادهم عن النقد ، فقال : « ومع ذلك فمن المصريين من يطالب بمصادرة حقنا فى أن نناقشه . هل من المعقول أن يأتى كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه فى حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟ أهذا معقول ؟ »[٢] هذا كلام رائع بغير شك : فكل من يستنكرون مهاجمة الحكام بعد موتهم إنما يهدفون ، فى حقيقة الأمر ،إلى مصادرة حق الناس فى توجيه أى نقد إلى الحاكم ، سواء خلال حياته أو بعد مماته . ذلك لأنهم هم أنفسهم الذين يشاركون فى قمع حريات المعارضين والتنكيل بهم واتهامهم بالعمالة والخيانة لو انتقدوا الحاكم حيا . وهم الذين يتمسحون بالفضيلة والأخلاق وتقاليد المجتمع والدين لو وجدوا من يهاجم الحاكم ميتا . وهكذا فالنقد أثناء الحياة ممنوع ، وبعد الموت عيب وحرام . فهل هذا — كما قال هيكل بالضبط — معقول ؟

ولكن المهزلة الكبرى تتمثل فى أن هيكل نفسه ، الذى يتلفت الآن حواليه ببراءة ويتساءل : أهذا معقول ؟ كان هو نفسه من أهم من استخدموا هذه الحجة المتهافتة ، وكان من أقوى الناس نقدا لمن يهاجمون الحكام بعد موتهم . وهكذا نجد أنفسنا إزاء « لا معقول » آخر ، غير ذلك الذى يمثله خصوم هيكل ، هو « لا معقول » هيكل نفسه .

---

(١) الأخبار فى ١٩٨٣/٤/١٩ .

(٢) حديث هيكل مع صلاح عيسى فى « الأهالى » ١٩٨٣/٤/٢٧ .

فلنبدأ بتأمل رأى قريب العهد لهيكل . لقد نشرت الصحف فى مصر والكويت ، الرسالتين المتبادلتين بين توفيق الحكيم وهيكل . فماذا نجد فى هاتين الرسالتين بشأن الموضوع الذى نتحدث عنه الآن ؟ قال توفيق الحكيم مخاطبا هيكل : « إن حالتى تشبه حالتك . فأنت كتبت كتابا « خريف الغضب » اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته . وأنا كتبت كتابا هو « عودة الوعى » اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته » . ولكن هيكل يرفض هذا التشبيه بين الكتابين ، ويهمنا فى رفضه السبب الثانى الذى قدمه للاختلاف بينهما : « لم أكتب بعد موت أحد . كتبت فى حياته رأيى ، وكتبت بعد موته نتائج دراستى لما حدث » وهو يؤكد فى موضع آخر أن الحكيم ألف كتابه « بعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر » على حين أنه هو ذاته نقد السادات منذ فبراير ١٩٧٤ .

علام يدل هذا الحرص على نفى فكرة نقد الحاكم بعد موته ؟ على شىء واحد ، هو أن هيكل يقف على نفس الأرض التى يقف عليها خصومه ، ويفكر بنفس منطقهم ، ويتبنى نفس قيمهم . فالمعنى الضمنى لديه هو أن نقد الحاكم بعد موته جبن ، أو عمل غير أخلاقى ، ومن هنا كان حرصه على تأكيد أنه نقد السادات حيا ، ولم ينتظر ثلاث سنوات كما فعل توفيق الحكيم ، وكل ما فعله بعد موت السادات هو أنه « كتب نتائج دراسته لما حدث » .

ولكن ، لنترك المعانى المفهومة ضمنا وننتقل إلى الكلام الصريح . فقد نشر هيكل مقالا بجريدة « الوطن » الكويتية[1] بعنوان : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » — وهو فى ذاته عنوان بالغ الدلالة ، يتهم فيه هيكل من ينقدون الأموات بالجبن لأنهم لم يمارسوا « شجاعتهم » إلا على الغائبين . فى

---

(١) ٣ أكتوبر ١٩٧٩ .

هذا المقال يروى لنا هيكل قصة عتابه لعبد الناصر على قيامه باعتقال شخصية من الشخصيات المرتبطة بصحيفة « الأهرام » ، ثم يعلق قائلا : « لا أسمح لنفسى أن أقص عليك ما قلته له . ذلك الآن تجاوز لا يليق . لو كان حيا واقتضت الظروف أن أروى الحديث كله لرويته . ولكنه لم يعد بيننا . ولهذا لا أستبيح لنفسى أن أدعى الشجاعة على غائب . ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين . الفئران كلها تعربد فى غياب القطط ، ولم يكن جمال عبد الناصر قطا ، وإنما كان أسدا مهيبا وشامخا » .

وهكذا يصف هيكل توجيه النقد للحكام بعد موتهم بأنه عربدة فئران فى غياب القطط ، ولا يدرى أنه بعد أعوام قلائل من حديثه ذاك ، سيجد بدوره من يشبهه بنفس التشبيه ، بعد أن مارس هو أيضا شجاعته على حاكم غائب . والمفارقة الساخرة أن قائل هذا الكلام هو نفسه الذى يهتف فى أيامنا هذه باستنكار : هل من المعقول أن يفعل الحاكم ما يشاء فلا نناقشه فى حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟

وهكذا فإنه ، عندما كان الأمر متعلقا بنقد تصرفات لعبد الناصر ، وجد هيكل فى مهاجمة الأموات جبنا ، وعندما أصبح متعلقا بالهجوم على السادات ، استنكر عدم مناقشة الحاكم بعد مماته (ولاحظ أنه استخدم فى هذه الحالة الأخيرة عبارة « كل حاكم » أى أنه كان يصدر حكما منطبقا على جميع الحالات) . هذا التناقض يدل على أن هيكل وخصومه يقفون جميعا على أرض واحدة ، ويؤمنون بمجموعة واحدة من الأفكار الباطلة ، التى ترتكز على نزعة أخلاقية زائفة تخاطب عواطف الناس لا عقولهم ، وتخلط بين الموت من حيث هو كارثة إنسانية شخصية ، وبين التقييم السياسى من حيث هو ممارسة لا صلة لها بالموتى أو الأحياء .

إن الجميع فى الوهم والضحالة الفكرية سواء ، والكل نشأوا فى مناخ

سياسى لا يسمح بالموضوعية ولا يترك مجالا للنقاش المنطقى المجرد عن الأهواء . فالساداتيون يقولون : لقد نبشتم قبر السادات . وهنا يرد الناصرى : وأين كنتم عندما نبش قبر عبد الناصر ؟ أنتم فئران ! ولكنه حين ينبش هو نفسه قبر السادات ، ويهاجمه خصومه لهذا السبب ، يتساءل فى براءة : هل من المعقول أن يمنعونا عن نقد « كل حاكم » حيا أو ميتا ؟ إنها أرجوحة شيطانية ، يتراقص فيها الجميع سكارى بخمر الأفكار الزائفة والقيم المضللة ، ويثبتون بها ، على نحو قاطع ، طفولية الفكر السياسى بين جميع أطراف اللعبة بعد ثلاثين عاما من ثورة أعلنت أن من أهدافها تحرير الفكر وتصحيح مسار القيم .

تظل هناك ، بعد ذلك ، نقطة واحدة يمكن أن يلجأ إليها هيكل فى دفاعه ، وهى أن نقده للسادات بدأ أثناء حياته . هذا صحيح ، ولكن ليقل لى الأستاذ هيكل « بصراحة » : لو كان السادات لا يزال حيا ، أكان يستطيع أن يتكلم عن « ست البرين » وعن « المجعراتى المتسول » وكأس الفودكا الذى يؤخذ بعد كل غداء ؟ ليُجِب ، بصراحة ، أيضا ، عن هذا السؤال : ما دام هو نفسه صاحب منطق القطط والفئران ، فأين يضع نفسه ، فى هذه النقطة بالذات ، بين هاتين الفئتين ؟

إن المسألة كلها خطأ مركب . فالكلام عن الأحياء والأموات ، والتفرقة بينهم فى النقد ، أمر لا معنى له فى ظل أى وعى سياسى سليم ، ومبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » ينطبق على الأقارب أو الجيران أو الشركاء ، ولكنه خارج عن مجال الكتابة التاريخية والسياسية . ولو صح هذا المبدأ فى تلك الميادين الأخيرة ، لما استطعنا كتابة التاريخ ، ولكان الموت هو شهادة البراءة لكل حاكم ظالم أو فاسق أو طاغية ، ولأصبح كل مؤرخ ، بحكم مهنته ذاتها ، نباشا للقبور . ولكن الذين اعتادوا على مدى سنوات طويلة ، أن يحصروا تفكيرهم

فى شخص الحاكم ، والذين عجزوا عن أن يتصوروا أية حقيقة تتجاوزه ، هم الذين يصبغون السياسة بهذه الصبغة الشخصية ، ويحكمون على تصرفات الحكام مثلما يحكمون على سلوك « كبار العائلة » ، وينسون المسئوليات الخاصة « لرجل الدولة » ، التى تحتم علينا أن نحاسبه على كل شىء ، وفى أى وقت نشاء .

هذا الذى قلناه ينطبق على الموضوع كله ، من حيث المبدأ ، وفى ظل أى نظام ، حتى النظام الديمقراطى . أما النظام الدكتاتورى — الذى تدور فى ظله كل مناقشات هيكل وخصومه — ففيه يصبح الموقف أوضح . فالنظام الدكتاتورى لا يسمح بمناقشة الحاكم « إلا » بعد وفاته . وما دام النظام الدكتاتورى تحكمه أسود مهيبة وشامخة ، فمن الطبيعى أن يكون هناك على الطرف الآخر ، فئران — وإلا فعلى أى شىء يستأسد الأسود ؟

إن الناقد الذى يهاجم أى حاكم فردى مطلق بعد مماته ، إنما يتصرف تصرفا طبيعيا لا مفر منه . ولو قيل له : إنك خائف ، لكان رده : نعم ، إننى لم أتكلم إلا الآن لأننى كنت خائفا ، ولى كل الحق فى أن أخاف . وحتى لو ادعى هيكل الشجاعة فأكد أنه انتقد السادات فى حياته ، فإن هذه ليست قاعدة يمكن أن تسرى على الجميع . فهيكل قد استطاع أن يختلف مع السادات فى سنواته الأخيرة علنا لأنه هيكل ، بكل ما يحمله من نفوذ وما لديه من اتصالات عالمية وما يحتفظ به من أسرار تبعث الرعب فى قلوب أقوى الأقوياء — وهذه كلها إمكانات لا تتوافر لأى كاتب آخر ، حتى لو كان فى منزلة توفيق الحكيم . ومع كل ذلك فإن هيكل عندما هاجم الحاكم الفرد فى حياته لم يكن يمسه إلا مسا رقيقا — واضطر — بكل سلطته ونفوذه وإمكاناته أن ينتظر حتى يموت لكى يغوص فى الأعماق .

إن القضية كلها — أعنى الكتابة عن الحكام أحياء أم أمواتا — هى فى رأينا

قضيةما كان ينبغى أن تثار ، وليس الاهتمام المفرط الذى أبداه أطراف النزاع بها إلا دليلا على قصور شديد فى الوعى السياسى لدى الجميع . والمسألة ببساطة استغلال لعاطفية الجماهير واستغفال لعقولها من أجل الحيلولة دون نقد الحاكم حين لا يعود الناس خائفين ، بعد أن كان نقده ممنوعا عندما كانوا خائفين . والخطأ الحقيقى الذى ارتكبه هيكل ، لا يكمن فى أنه انتظر حتى يموت السادات ثم فجر قنابل المعلومات على قبره — إذ أن الدكتاتور لا يمكن نقده إلا بهذه الطريقة . وإنما يكمن خطأ هيكل فى أنه لم يكن يدرك هذه الحقيقة طوال الوقت ، بل عاش الجانب الأكبر من حياته واقعا فى وهم « القطط والفئران » والشجاعة على الحاضرين والجبن على الغائبين .

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

تظل ردود الفعل على كتاب هيكل مصدرا مفيدا غاية الفائدة لتحليل أساليب التفكير المشوهة التى أصبحت سائدة فى عالمنا العربى بعد سنوات طويلة من القمع . وتتعمق دلالة هذا التشويه حين ندرك أن الكاتب الذى أثار ردود الفعل هذه ، لم يسلم هو ذاته ، فى كثير من الأحيان ، من الوقوع فى أخطاء نقاده نفسها ، بحيث يشعر المرء بأن المسألة فى حقيقتها لا ينبغى أن تناقش على مستوى أطراف النزاع ، ولا ينبغى أن تنحصر فى البحث عن المصيب والمخطئ بين هذه الأطراف ، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن فى ذلك الجو الفكرى المزيف الذى طغى تأثيره على الجميع و لم يسلم منه أى طرف .

كان هيكل ، بغير شك ، مبالغا فى حديثه عن العوامل الفردية والعائلية التى تحكمت فى نشأة أنور السادات ، وصبغت شخصيته فيما بعد بصبغتها المميزة . صحيح أنه ، حين يكون الحكم فرديا مطلقا ، تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه ، وربما نزواته ، دورا لا يستهان به ، يمكن أن ينعكس حتى على قراراته المصيرية . ولكن المشكلة هى أن العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا : فالابن الذى يضطهده أبوه أو يسىء معاملته ، مثلا ، يمكن أن يتحول إلى إنسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ، ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى . ولكنه يمكن أيضا أنه يكون إنسانا حنونا عطوفا على الآخرين ، لا يريد لهم نفس المحنة التى مر هو ذاته بها ،

ويكون هذا أيضا رد فعل على نشأته الأولى ــ وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها فى الإنسان البالغ ، هو دائما حديث محفوف بالمخاطر ، يقبل أشد التأويلات تناقضا .

خذ مثلا فكرة الأصل المتواضع ، والحياة الصعبة التى كانت تحياها أسرة السادات . هذا شىء يقبل تفسيرات شديدة التنوع . فكم من زعيم أسدى لشعبه أعظم الخدمات ، وكان أصله المتواضع هو الحافز له على أن يفنى حياته من أجل الشعب الذى يشعر دائما بانتمائه إليه . وإذا كان السادات قد أغرق نفسه فى البذخ ، بصورة مبتذلة ، فى حياته المتأخرة ، فإن هذا اختيار واع من جانبه ، وانتماء وانحياز منه إلى طبقة محددة ، وليس مجرد عقدة نفسية عبرت عن نفسها بصورة عكسية . فلماذا لم تؤد عقدة الفقر بهوشى منه أو لومومبا مثلا إلى اختيار حياة القصور والاستراحات ؟ ألم يكن جمال عبد الناصر نفسه فقيرا[١] ؟ بل إن مثل هذا التفسير يمكن أن يستخدم ضد هيكل نفسه ، وقد أشار موسى صبرى بوضوح مقزز إلى أصول هيكل العائلية ولمح إلى ما يسميه : خوفه من إظهار أبيه فى الأماكن العامة ، بل إن كاتبا قدم عملا روائيا ومسرحيا مشهورا تضمن إشارات مماثلة تتعلق بشخصية من شخصيات الرواية رأى كثير من النقاد أنها ربما كانت تعبيرا عن شخصية هيكل نفسه[٢] .

هذه أمثلة لا أذكرها إلا لكى أنقدها وأبين أنها مبنية على فهم باطل من

---

(١) يلاحظ أن بعض ضحايا التأميمات ، فى عهد عبد الناصر ، قد فسروا إجراءات التأميم والمصادرة تفسيرا يوازى تفسير هيكل لسلوك السادات ، فذكروا أنها تعبير عن حقد عبد الناصر على طبقة الأغنياء وحسده لها بسبب أصوله الفقيرة ــ وهكذا يؤدى السبب الواحد إلى نتيجتين متناقضتين .

(٢) انظر : الرجل الذى فقد ظله لفتحى غانم .

أساسه لعملية تفسير مسلك رجل الدولة . ومع ذلك فقد تورط هيكل فيها ، خلال فصوله الأولى ، أكثر مما ينبغي . ولا شك أن نوعية الجمهور الذى وجه إليه الكتاب أصلا ، وهو الجمهور الأمريكى ، كانت مسئولة إلى حد بعيد عن هذا التورط . فالأمريكيون مصابون بهوس العقد النفسية والتفسيرات السيكولوجية الرخيصة ، وهم ينفقون على العلاج النفسى ما يغطى ميزانيات عدة دول من العالم الثالث ، دون أن يجنوا من ذلك إلا مزيدا من السلوك غير السوى . وهكذا خاطب هيكل جمهوره الأمريكى باللغة التى تروق له ، ولكنها للأسف لغة لا تفسر شيئا ، بل تزيد الأمور تعقيدا .

خذ مثلا مشكلة اللون . لقد كان هيكل — للإنصاف — واضحا فى هذه المسألة ، فأكد أن السادات كان معقدا من لونه « بلا داع » . وفى كل مرة كان يكرر أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى هذا التعقيد اللونى . ولكن مجرد الإشارة إلى اللون كانت كفيلة بإثارة ردود فعل غاضبة لدى كثير من الناس . وكان من أطرف ردود الفعل هذه ما كتبه مستشار سودانى احتج بشدة على ما ذكره هيكل عن عقدة اللون عند السادات ، مؤكدا أن هذا ليس رأى الشعب المصرى فى الشعب السودانى ، الذى يحبه المصريون ويفخرون به ، وذاهبا إلى أن هذه إساءة إلى الشعب السودانى تعرقل مسيرة التكامل بين البلدين « فى ظل قيادة الرئيس نميرى » . ورأى المستشار فيما قاله هيكل تفرقة عنصرية ، ومؤامرة مشتركة مع القذافى لعرقلة التكامل بين الشعبين . ولم ينس المستشار أن يشير إلى أسماء عدد من الشخصيات المصرية المشهورة التى كانت من أب سودانى أو أم سودانية ، كمحمد نجيب وعبد الله النجومى وعلى عبد اللطيف ، ولم يمنعهم ذلك من دخول التاريخ[1] . هذا رد فعل

---

(١) المستشار أحمد الشريف (سودانى) : مقال بعنوان « متى كانت الجنسية السودانية سبة ؟ » (الأخبار فى ١٩٨٣/٤/٢٦) .

مبالغ فيه بغير شك ، وربما كان طائشا ، نتج عن فهم قاصر لإشارة هيكل إلى لون السادات ، ولكن الموضوع بأكمله ما كان ينبغى أن يثار ، لأن أخطاء الحكام ، وخاصة حين تكون فادحة ، أعقد من أن تفسر بمثل هذه العوامل .

ولكن لنتوقف وقفة أطول عند صفة أخرى أكدها هيكل بإلحاح ، وأثارت ضده موجة من ردود الفعل العنيفة ، وأعنى بها نشأة السادات الفقيرة ، التى أدت ، وفقا لتفسيرات هيكل النفسية ، إلى رد فعل فى الاتجاه العكسى لدى السادات عندما أتيحت له فرص الإثراء . ولما كان هدفنا الدائم هو التوصل إلى أنماط الفكر التى أصبحت سائدة فى أيامنا هذه ، والتى تشهد على الانهيار العقلى المميز لعهود القهر والكبت ، فسوف نبدأ بضرب أمثلة لردود الفعل التى لا يكاد يتصورها العقل ، على ما قاله هيكل عن فقر السادات فى حداثته : فالكاتب الذى اقتبسنا عنه من قبل ، والذى تحدث بلسان السادات ، ردا على هيكل ، دون أن يذكر اسمه ، يقول : « صدقوا فيما يقولون إن نشأتى عقدتنى . ذقت الفكر وقسوته فحاولت أن أجنب غيرى تذوق مرارته . تملكتنى عقدة الرخاء ، وكانت أغلى أمانىّ أن يوفقنى الله إلى حماية من عنده لكل مصرى ومصرية من مواجهة لا ترحم مع شيخوخة أو عجز أو عوز ، وأن يقدرنى على طلب الطعام من الصحارى لكل فم ، وحق العلاج والدواء لكل عليل ، وتوفير البيت لكل عروس ، ويشهد الله والشعب الوفى الذى لا ينسى أننى سعيت وحاولت قدر طاقتى » .

ويستنكر زعيم يمنى سابق على هيكل أنه يعير السادات بفقره ، فيذكر القراء بأن الله قد اختار أنبياءه من الفقراء وقال لرسوله :﴿ فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ . ثم يعلق الزعيم السابق المشهور قائلا : « و لم نسمع أن السادات قهر يتيما ، ولا نهر سائلا ،

وكان بنعمة ربه يحدث »[١] .

والنموذج الثالث شهادة سريعة لموسى صبرى ، يكرر فيها قصة عن السادات الذى أصر على أن يقرأ بنفسه شكوى رجل فقير بعد أن حاول سكرتيره الخاص أن يعالج الموضوع دون تدخل من الرئيس ، ثم قال السادات لهذا السكرتير : « أنت يا فوزى لم تعان الفقر كما عانيته »[٢] .

هذه الأمثلة تكفى للدلالة على التدهور الخلقى والفكرى الذى يمكن أن يصل إليه الإعلام فى ظل القمع . فكاتب العبارة الأولى ، على سبيل المثال ، لا يخجل من الحديث عن رحمة الرئيس بالفقراء ، ويتوهم أن الوعى لدى الجماهير قد انعدم إلى حد نسيان مجموعة المليونيرات التى أحاطت بالرئيس السابق وصاهرته ، وتلك التى أعطيت لها كل الفرص لنهب أموال الشعب فى ظل الانفتاح . ولا يتورع الكاتب عن الحديث عن شقة لكل عروس فى الوقت الذى تشهد به تجربة الناس اليومية أن أسعار المساكن الخيالية وصلت إلى أرقام لم تعد تقدر عليها إلا عروس واحدة بين كل ألف عروس . وهو لا يستحى من الحديث عن الطعام لكل فم وسط الغلاء الطاحن ، ولا عن الدواء لكل مريض وسط الإهمال الكاسح لعلاج الشعب والارتفاع الصاروخى لأسعار العلاج الخاص . فماذا يمكن أن يقول العقل والمنطق حين تصل الصفاقة بالإعلام إلى هذا الحد ؟

إن من العبث أن يسترسل المرء فى مناقشة هذه الشهادات الفجة ، التى لا ترتكز إلا على مغالطات مفضوحة ، وما استشهدنا بها هاهنا إلا لكى نقدم نماذج للمستوى الذى أصبحت تناقش به أمور المجتمع المصيرية فى الوقت الراهن . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتساءل : هل يكفى التعليل الذى قدمه

---

(١) انظر مقال الدكتور عبد الرحمن البيضانى فى الأهرام ، ١٩٨٣/٤/٢٤ .

(٢) مقالة موسى صبرى فى الأخبار ، ١٩٨٣/٤/١٩ .

هيكل ، والذى يرتكز على فكرة عقدة الفقر ، لكى يفسر البذخ المفرط الذى تميزت به حياة السادات ، وحياة المحيطين به من أقارب وأصحاب ؟ إن عقدة الفقر ، كما قلنا ، يمكن أن تتجه اتجاها عكسيا ، فتولد لدى الحاكم تعاطفا حقيقيا مع الفقراء ، وسعيا جادا إلى استئصال الأسباب المؤدية إليه ، فلماذا إذن كان الاتجاه ، فى حالة السادات ، إلى التمتع المفرط بنعم الحياة ، والاندماج التام بأكبر أثرياء المجتمع ؟

فى رأيى أن المسألة اختيار واع ومقصود لنمط معين من أنماط الحياة ، ولفئة معينة فى المجتمع هى الأقدر على إشباع احتياجات نمط الحياة المطلوب . فالتفسير هنا اجتماعى واقتصادى قبل أن يكون نفسيا .

والدليل على صحة الرأى الذى نقدمه هو أن السادات حارب فكرة الفقر ذاتها ، بطريقة متعمدة ، أملا فى إلغائها من القاموس ، وبذل جهودا واعية لإقامة « فلسفة » خاصة به ، لا مكان فيها لمفهوم الفقر ، وبذلك تكتمل عملية تغييب الوعى لدى الجماهير التى تشعر بوطأة الفقر فى حياتها اليومية حتى لو لم تفهم الأسباب الحقيقية المؤدية إليه . ففى معظم خطب السادات وأحاديثه كانت هناك دعوة متكررة إلى إلغاء الحقد ، والاستعاضة عنه بالحب والتآلف والانسجام فى ظل مجتمع « الأسرة الواحدة » الذى يرعاه ويسهر عليه « كبير العائلة » . والحقد هنا ليس إلا تطلع الفقراء إلى نمط حياة الأغنياء . وهكذا تقوم هذه الفلسفة المتهالكة على إذابة الوعى بالفقر ، وإلغاء الإحساس بالفوارق الصارخة بين الطبقات ، بدلا من أن تقوم على إلغاء هذه الفوارق ذاتها . ولا جدال فى أن الإلحاح على الناس ليل نهار كى يتخلوا عن الحقد ويحبوا بعضهم بعضا ، فى إطار مجتمع يسوده كل هذا القدر من التفاوت فى الثروات وفى كافة فرص الحياة ، وإنما هو محاولة واعية لتزييف عقول الناس بحيث تنسى واقعها الأليم ذاته ، وليس على الإطلاق مجرد رد فعل نفسى من

جانب الحاكم على نشأته الفقيرة .

ولعل الدليل الأوضح من هذا كله هو موقف السادات من أحداث يناير ١٩٧٧ . فهذه الأحداث كانت « ثورة فقراء » بمعنى الكلمة . والأمر اللافت للنظر حتما ، فى موقف السادات إزاءها ، ليس أسلوب القمع العنيف الذى اتبعه لإخمادها ، فهذا هو المسلك المنتظر من أى حاكم فى مثل موقفه . ولكن ما ينفرد به السادات هو أنه حاول أن يلغى طبيعة الحدث ذاته ، ويحذف منه عنصره الأساسى ، عنصر الفقر ، حذفا كاملا . وهكذا ظل السادات شهورا طويلة ، بعد يناير ، يوجه إلى كل من يناقشه أو يحاوره سؤالا لا يتغير : انتفاضة شعبية أم انتفاضة حرامية ؟ وتبعا للإجابة عن هذا السؤال يتحدد موقف كل شخص ، إن كان مع السلطة أو ضدها ، من أنصار الانفتاح أو خصومه ، من الطبقة العليا الجديدة أم من الطبقات الدنيا . كان إطلاق اسم « الحرامية » على تلك الملايين التى خرجت فى مظاهرات تلقائية عارمة ضد رفع الأسعار ، هو فى ذاته اختيار طبقى لا تخطئه أى عين . وبغض النظر عن أن وجود كل هذا العدد الهائل من « الحرامية » (لو صحت التسمية) هو فى ذاته دليل على أن هناك خللا أساسيا فى المجتمع ، فإن الشىء الذى ينطوى على دلالة عميقة هو أن الاختلاف حول الاسم كان يعكس محاولة من الحاكم لإنكار وجود الفقر فى المجتمع أصلا . فالمتظاهرون لم يخرجوا لأنهم فقراء بل لأنهم « حرامية » . هذه قمة التوحد مع الطبقة الثرية التى أصبحت تحكم مصر وتنهب مواردها .. ذلك التوحد الذى يصل إلى حد إلغاء كلمة الفقر من القاموس ، وكأن حذف لفظ معين وإحلال لفظ آخر محله سوف يستأصل الظاهرة نفسها من جذورها !

كانت تلك ، بطبيعة الحال ، واحدة من الحالات التى يقوم فيها اختيار لكلمة مخففة بالتغطية على حقيقة أليمة مريرة ، تلك الحالات التى تكتشف فيها

أجهزة الإعلام سحر « الكلمة » ، فتتلاعب بها وهى واثقة من أن الكلمات المزيفة ، إذا ما تكرر استخدامها إلى الحد الكافى ، تستطيع أن تغير طبيعة الظاهرة التى تتحدث عنها وتشكلها بالطريقة التى تحقق أهـداف الحاكم — ويدخل فى هذا الإطار استخدام أجهزة الإعلام المتكررة للفظ « النكسة » بدلا من الهزيمة الثقيلة فى يونيو ١٩٦٧ ، وحديثها الدائم عن « سيـادة القانون » ، بمعنى وضع قوانين مزيفة توافق عليها الأغلبية الآلية فى المجالس النيابية ثم ضمان « السيادة » لها ، واستخدامها تعبير « تحريك الأسعار » بدلا من الغلاء الفاحش ، وهلم جرا .

على أن الأمر اللافت للنظر هو ذلك الافتقار العجيب إلى سياسة محددة المعالم ، قابلة للتنفيذ ، لمواجهة ظاهرة الفقر فى مصر . فبدلا من التصدى للظاهرة بأساليب مخططة ومدروسة ، كان الحاكم يتحدث فى كل مناسبة ، عن أمنيته الغالية ، وهى أن يكون لكل مصرى « فيلا وسيارة » خاصة به . ومثل هذا الحديث ليس مجرد تخدير لحواس الناس وعقولهم فحسب ، بل هو أيضا دليل على أن فكرة المواجهة العلمية للمشكلات غير موجودة فى ذهنه أصلا : ذلك لأن بلدا كمصر لا يحتمل ببساطة ، أن يكون لكل مواطن فيه « فيلا وسيارة » ، حتى لو كان نظام الحكم فيه وطنيا مخلصا بلا أى شائبة . والنظرة العلمية إلى مشكلة كهذه هى التى تحدد الأهداف وفقا للإمكانات الموجودة ، وتكتفى بالحد الأدنى للمعيشة الآدمية بدلا من أن تغرق الناس فى أوهام يستحيل تحقيقها . ومن المؤكد أن المفارقة لا بد أن تكون قاسية بين حلم « الفيلا والسيارة » ، حين يشيعه بين الناس أكبر مسئول فى الدولة ، وبين الأسعار الفلكية للمساكن الجديدة ، ووسائل المواصلات اللاإنسانية التى لا تملك الأغلبية الصامتة غيرها . وفى مثل هذه الحالات ، يكون التقدير الواقعى للأهداف أقدر بكثير على تهدئة مشاعر الناس وبعث الأمل فى نفوسهم

من أى تعبير تخديرى حالم .

المهم فى الأمر أن المحاولات الواعية المتعمدة للتغطية على حقيقة الفقر الصارخة ، ولتعليل الناس بآمال زائفة ، لا يمكن أن تكون مجرد تعبير عن اختيار وانحياز إلى جانب القلة المستغلة ضد الأكثرية المطحونة من وطأة الاستغلال . إنها فلسفة متكاملة ، دبرت وخططت بعناية وبخطط مرسومة ، وليست مجرد رد فعل سيكولوجى على ظروف الفقر التى سادت خلال فترة النشأة الأولى . ومن هنا يبدو أن الخطأ الذى ارتكبه هيكل فى هذا الجزء لا يقل فداحة عن ذلك الذى ارتكبه خصومه ممن تحمسوا للدفاع عن السادات ، سواء منهم ذلك الذى أكد أن فقر السادات جعله يسعى حثيثا لاستئصال كل مظاهر الفقر فى بلاده ، أو ذلك الذى ذرف دموع التماسيح وهو يتحدث عن معاناة رئيسه من الفقر فى حداثته ، أو ذلك الذى شهد — بكل أمانة وإخلاص — بأن السادات لم يقهر يتيما ، ولم ينهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث !

إن الاهتمام الزائد بعوامل التنشئة والتربية والبيئة الأولى ، فى حياة السياسيين ، يمكن أن يؤدى إلى عكس الهدف المقصود منه . ففى حالة السادات كان من الممكن — كما قلنا من قبل — أن تفسر نشأته المتواضعة على نحو يؤكد تعاطفه مع الفقراء ، كما فعلت أجهزة الإعلام المؤيدة له بالفعل . ولو قيل إن النشأة المتواضعة ، وليس الاختيار الأصيل ، هى التى أدت به إلى ارتكاب أخطائه ، فإن مثل هذا التعليل يعنى التماس شيء من العذر للحاكم ، لأنه سيكون عندئذ « ضحية » ظروفه العائلية القاسية ، وربما اقتنع البعض بأنه لم يكن يملك أن يفعل إلا ما فعل . وهذا كله هروب من المسئولية الحقيقية : مسئولية الاختيار الواعى ، المخطط ، المرسوم ، الذى تخلى فيه السادات عن طبقته الأصلية وانحاز بكل قوة إلى أصحاب الملايين الجدد .

ومع ذلك فإن هيكل يبرز هذا العامل إلى حد تصوير المسألة كما لو كانت مسألة إنسان مصاب بمجموعة من العقد النفسية التى لم يكن يستطيع التخلص من تأثيرها طوال حياته . وإذا قال البعض ، دفاعا عن هيكل ، إنه لم يفعل ذلك إلا فى الفصول الأولى ، بينما خصص الفصول التالية للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والموضوعية ، فإن هيكل نفسه يعود فيؤكد التهمة الموجهة إليه حين يقول فى الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد أن عرض ملحمته الطويلة عن السادات ، وأراد أن يلخص فى النهاية ما انتهى إليه من نتائج : « يمكن الآن بأثر رجعى أن يقال إن غلطة السادات الكبرى تمثلت فى تضحيته بالأهداف الاستراتيجية لمصر من أجل مناورات تكتيكية كان مشكوكا منذ البداية فى قيمتها . ويمكن أن يقال — وبحق — إن حرب أكتوبر كانت فرصته الكبرى ، بل كانت فرصة لم تتح لحاكم مصرى قبله فى تاريخ مصر الحديث ، بما فى ذلك محمد على وجمال عبد الناصر ، ولكنه ألقى بكل شىء فى الهواء . وربما كانت المسئولية تقع على نوع الحياة التى عاشها ، أو ربما كانت تقع على نقص حصيلته من التعليم والعلم ، وكلها عوامل تجعل من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » .

هنا ، وفى نهاية الكتاب ، يعمد هيكل إلى استخدام التعليلات الشخصية ، مثل نوع الحياة التى عاشها الحاكم ، أو نقص تعليمه ، لكى يفسر بها أخطر الأحداث — وكأن السادات لو كان أكثر علما لتغيرت سياساته جميعا . أما المصالح والانتماءات والارتباطات ، فلا مكان لها فى تعليلات هيكل . فظروف الحاكم ، من حيث هو فرد معين نشأ فى أوضاع معينة ، هى التى تفسر كل شىء . وإن المرء ليعجب كيف يقبل مفكر ومحلل كبير ، كان أقرب المقربين إلى حكام أكبر بلد عربى خلال ربع قرن من الزمان على الأقل ، أن يقدم مثل هذا التعليل الجزئى الضيق لأحداث سياسية كبرى ، ويتجاهل

عوامل أساسية مثل اختيار الحاكم أن ينتمي إلى الشريحة العليا للمجتمع ويربط مصيره بها ، ومثل اتباعه أسلوبا للحكم غير مستند إلى إرادة شعبية تعبر عن نفسها تعبيرا حرا سليما . فهل يكون من المستغرب بعد ذلك أن تكون النتيجة التي يصل إليها تحليله هي أن « من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » ؟

وكل ما أستطيع أن أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد فى التحليل ، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من حكام أفرادا بعيدين عن الديمقراطية ، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بإرادة فردية مطلقة ، لن يستطيعوا أن يخرجوا فى تعليلاتهم وتفسيراتهم عن إطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان .

إن المناقشة الطويلة التى قمنا بها ، على مدى هذا الفصل والفصول السابقة ، لردود الفعل على ما كتبه هيكل ، إنما كانت تستهدف قبل كل شىء ، إظهار عناصر الضعف والتفكك فى الجو الفكرى الذى عاش فى ظله هيكل وخصومه معا . فالجميع يقعون فى أخطاء متشابهة ، وإن كانت هذه الأخطاء مكشوفة مفضوحة فى بعض الحالات ، وغير ظاهرة للعيان فى حالات أخرى .

وأبرز هذه الأخطاء هو الخلط بين العوامل الشخصية والعوامل الموضوعية فى تحليل الظواهر السياسية وإصدار الأحكام على تصرفات رجال الدولة . هذا الخطأ واضح كالشمس فى استنكار الساداتيين لعدم الوفاء وانتهاك الحرمات ونبش القبور ، ولكنه ظاهر أيضا فى تأكيدات هيكل ، فى مواضع كثيرة من كتاباته ، بأن نقد الحكام بعد موتهم ليس من الشجاعة فى شىء . إن المنهج الفكرى واحد ، وإن كان يطبق فى حالة هيكل — كما يحدث دائما — بطريقة أكثر ذكاء وخفاء .

ومن شأن اتباع هذا المنهج أن يبدو الصراع حول المسائل السياسية

الكبرى كما لو كان ثأرا بين أشخاص . وهكذا يقول البعض ، تأييدا لموقف هيكل ضد مهاجميه : أين كنتم عندما كان عبد الناصر يُشتم ؟ فيرد البعض الآخر ممن ينقد حملة هيكل على السادات : ولماذا هاجمت دكتاتورية السادات وسكت عن دكتاتورية عبد الناصر ؟ ويظل كل من الطرفين حريصا ، قبل كل شيء ، على ألا يوجه اللوم إلى الرئيس الذى يدافع عنه ويترك الآخر ، أما القضية الأصلية ، وهي أن حق النقد ينبغي أن يكون مباحا للجميع ، وفى عهود كل الحكام ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم ، فلم يدافع عنها أحد .

وحين تثور العواصف ضد هيكل من صحفيين كانوا زملاء له ، ثم اندمجوا فى العهد الساداتى ، يعلق على ذلك بأسف قائلا : « ليس بينهم من لم أقف معه فى أحلك الظروف و لم أفعل كل ما فى وسعى لمساعدته ، ولولا أننى لا أريد أن أمن على أحد ، لذكرتهم لك واحدا واحدا وبالاسم ورويت ما قدمته لهم »[1] .

إنه هنا يلخص الموقف كله : فهو يتصور أنه بمثل هذه الإشارات إلى الخدمات الشخصية التى أسداها يرد على نقاده ، وينسى أن القضايا المثارة أخطر بكثير من منطق الخدمات والمساعدات الفردية ، ويثبت أنه لا يختلف عن مهاجميه ممن خضعوا لمنطق الحكم المطلق وعجزوا عن تفسير الظواهر العامة إلا من خلال سلوك الأفراد .

---

(١) حديث مع صلاح عيسى فى « الأهالى » بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٧ .

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

من سمات عهود القمع الفكرى وكبت الرأى المعارض أنها تنشئ أجيالا لا تعرف التاريخ إلا فى صورة مشوهة . فحين تكون وجهات النظر المتباينة متاحة يستطيع العقل الناضج أن يكوّن صورة صحيحة عن أحداث التاريخ وتياراته ، ويصدر أحكاما سليمة على السياسات التى تحكمت فى صياغته . أما حين يسرى الحظر الكامل على وجهات النظر التى تخالف موقف السلطة الحاكمة ، فكيف نتوقع من أى جيل لم يتعرض إلا لوجهة النظر هذه ، أن يفهم أحداث التاريخ ويصدر حكما صحيحا عليها ؟

وأستطيع أن أقول إن الأجيال التى تقل أعمارها عن خمسة وأربعين عاما ، وهى بالطبع تشكل الأغلبية فى العالم العربى المعاصر ، لا تعرف عن تاريخ ما قبل ثورة ١٩٥٢ سوى معلومات غير موضوعية وغير منصفة . هذا بالطبع لا يمنع من أن يكون ثمة أفراد هنا وهناك بذلوا جهودا مضنية فى القراءة والاطلاع والبحث عن الحقائق من مصادرها الأصلية ، بحيث لا يسرى عليهم هذا الحكم ، ولكن مثل هذه الجهود لا تتاح إلا للقلة القليلة ، بحيث يمكن القول إن الجيل بوجه عام لم يعد يعرف ذلك التاريخ إلا من خلال وجهة نظر معادية له ، ومن ثم فقد حرصت كل الحرص على تشويهه .

كانت تجربة مصر مع الديمقراطية تجربة فريدة بحق . فمنذ القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية ، حاول حكام مصر فى ذلك الحين ، وهم

أتراك أو أنصاف أتراك ، أن يستغلوها لحسابهم ، وجندوا بالفعل عددا من الأعوان والأذناب ، ولكن كان هناك دائما من يتصدون للقهر والطغيان ، وشهدت هذه المجالس مواقف مجيدة كان نواب الشعب فيها يدافعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم ، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقوقه . كانت تجربة ديمقراطية مبكرة ، سبقت نظيراتها فى كثير من البلاد الأوروبية ، وكانت شهادة بالغة الدلالة على أن الشعب يستطيع أن يجنى من الديمقراطية مكاسب هامة ، مهما كانت قوة التيارات التى تقف فى وجه تطوره .

ولقد كانت هذه التيارات قوية بغير شك . فقد كان هناك القصر (الخديوى فى البدء ، ثم الملوك بعد ذلك) ، وكان هناك الإنجليز ، وكان هناك أعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح ، ولم يكن الطريق بالتالى سهلا على الإطلاق . ومع ذلك فقد كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته فى كل فرصة تتاح له .

وحين قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر ، لم تكن الثورة التى عمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، والتى شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا ، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطى فى الكفاح من أجل الوطن ــ لم تكن هذه الثورة كفاحا ضد الأجنبى المحتل فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاته جهادا من أجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية للشعب ، وكان من أبرز مظاهر النضج السياسى فى ذلك الحين وجود وعى كامل بأن الكفاح من أجل الاستقلال والكفاح من أجل الديمقراطية لا ينفصلان .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، تميزت الحياة السياسية بطابع الصراع العنيف ، الذى تحددت معالمه بوضوح تام ، بين تيارين : تيار رجعى يمثله القصر والإنجليز وأعوانهما ، وتيار شعبى مستنير يمثله الوفد . ولم

يكن الوفد حزبا مثاليا ، بل كانت فى داخله تيارات متعارضة ، كما كان يضم شرائح متباينة من المجتمع إلى الحد الذى يجعله أقرب ما يكون إلى صيغة « تحالف قوى الشعب » ، تلك الصيغة التى بذلت فيما بعد محاولات لتطبيقها فى إطار غير ديمقراطى ، فلم تلق نجاحا .

ومع ذلك كان فى الوفد ميزتان أساسيتان : الأولى أنه كان على وعى تام بأن مصدر قوته هو التأييد الشعبى الساحق ، ومن ثم فقد كان فى أوقات الأزمات يقف بصلابة فى الدفاع عن الدستور وعن حقوق الشعب التى هى رصيده الأكبر . والثانية هى مرونته وقدرته على تطوير نفسه وفقا للأحداث ، مما أتاح له أن يصمد صمودا رائعا ، طوال الفترة الواقعة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، على الرغم من كل حملات التشويه والتشنيع التى كانت تشن ضده بانتظام . وبفضل هاتين الميزتين استطاع الوفد أن يكتسح أحزاب الأقلية ، التى خلقها القصر والإنجليز لمحاربته ، فى كل انتخابات تجرى بقدر معقول من الحرية . وكان آخر انتصاراته ، وأكثرها مدعاة للدهشة فى نظر خصومه ، هو فوزه الساحق فى الانتخابات التى أجريت فى أواخر ١٩٤٩ ، بعد فترة بدا فيها لخصومه فى الداخل والخارج أنهم أفلحوا فى تشويه صورته عن طريق اختلاق تفسير كاذب لأحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وعن طريق انشقاق مكرم عبيد ونشره « كتابا أسود » ضد الوفد ، وعن طريق إنشاء دار « أخبار اليوم » الصحفية خصيصا لخدمة أهداف الملك والإنجليز والتخصص فى تشويه صورة الوفد .

إننا لا نقدم هنا استطرادا خارجا عن الموضوع ، ولا نود أن نقطع حبل الأحداث التى أثارها كتاب هيكل أو التى ظهر كرد فعل عليها ، إذ أن هذه الملاحظات تدخل فى صميم الموضوع ، وهى فى رأينا تكمن فى قلب المأساة الفكرية والسياسية التى تعانى منها مصر والأمة العربية فى الوقت الراهن .

فهناك كما قلنا جيل يجهل هذه الأحداث أو لا يعرفها إلا من خلال ما كتبه عنها خصومها منذ عام ١٩٥٢ . ومن حق هذا الجيل على من شهدوا هذه الفترة بوعى وفهم أن يدلوا بشهادتهم ، وسواء اقتنعوا بهذه الشهادة أم لم يقتنعوا ، فلينظروا إليها على أنها مادة خام تساعدهم على المزيد من التحليل والتفكير .

كانت الفترة التى تولى فيها الوفد السلطة ، بعد انتصاره الساحق فى آخر انتخابات أجريت قبل الثورة ، وآخر انتخابات حرة فى تاريخ مصر ، فترة فريدة بحق فى تاريخ هذه المنطقة كلها . ومن المؤسف حقا أن أحداث عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ لم تنل حظها من الدراسة والتحليل ، مع أن هذه الفترة بالذات تلقى الضوء على الكثير جدا من التطورات التالية . ولن يسمح لنا المجال ها هنا ، ولا الحرص على الاحتفاظ بتسلسل المناقشة وترابطها ، بأن نتحدث بأى شىء من التفصيل عن هذه الفترة الحاسمة التى تنطوى على مفاتيح تفسر أحداثا كثيرة وقعت فيما بعد ، ولكن حسبنا أن نشير فى عجالة إلى الخطوط العريضة لأحداث هاتين السنتين الحاسمتين ، اللتين بدأتا عند استدارة القرن العشرين إلى نصفه الثانى — وكانتا نقطة تحول أساسية بين التاريخ السابق والتاريخ اللاحق .

فى هاتين السنتين الحاسمتين وقعت الأحداث الكبرى الآتية :

١ — تركت الحرية للصحافة لكى تهاجم الملك — أقوى سلطة فى البلد ، بارتكازه على قوتى الإنجليز والجيش — واتخذ الهجوم فى بعض الأحيان طابع الفضح المباشر لتصرفات الملك وأسرته . وكان مما ساعد على ضمان هذه الحرية ، معركة مشهورة نشبت فى ذلك الحين حول تشريعات مقيدة للصحافة (وهى تشريعات لا تساوى شيئا إذا ما قيست بالقيود الفعلية التى أصبحت تمارس ضد حرية الصحافة بعد عام ١٩٥٢) ، واستطاع فيها الضغط الشعبى ، ممثلا فى حملة صحفية رائعة ضد التشريعات الجديدة ، أن

ينتصر فى النهاية ، فسحبت التشريعات وتأكدت حرية الصحافة .

٢ ـــ قامت الحكومة ، استجابة لمطالبات شعبية واسعة النطاق أيضا ، بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الإنجليز ، وبدأ عهد الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة . وبقدر ما كانت حركة الكفاح المسلح ارتجالية فى البداية ، فإنها كانت تحمل للدول الغربية الطامعة فى المنطقة ، وعلى رأسها القوة الإمبريالية الجديدة (أمريكا) ، نذرا خطيرة إلى أبعد حد : هى تكوين نواة لجيش شعبى مدرب على مكافحة الاستعمار ، وهو أكبر خطر تخشاه هذه القوى الأجنبية ، وخاصة إذا انتقلت عدواه فيما بعد إلى الأقطار العربية الأخرى .

٣ ـــ وضعت أسس راسخة لمبادئ العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم ، فطبق مبدأ مجانية التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجانى فى الجامعة إلى حد بعيد ، وطبق طه حسين ، حين كان وزيرا للتعليم ، مبدأ « التعليم كالماء والهواء » ، وكانت تلك هى البداية الحقيقية للتحول الاجتماعى ، ليس فقط فى التعليم ، بل فى فرص العمل وإدارة دفة المجتمع .

وهكذا كانت تلك التجربة الأخيرة لحكم الوفد هى ذروة التطور الديمقراطى الذى سارت فيه مصر طوال فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن . ومن اللافت للنظر أن هذه التجربة الرائعة كانت تتم فى وجه عقبات هائلة ، ولم يكن طريقها سهلا أو معبدا على الإطلاق ، إذ كان هناك ملك مستبد يشعر بالخطر الذى يتهدده من هذه التطورات ، ويتحين الفرص لإسقاط الحكومة التى ستؤدى سياستها حتما إلى القضاء عليه ، وكان هناك احتلال بريطانى يريد أن يثبت أقدامه ويتعاون مع أعداء الحكومة الوطنية بكل الوسائل ، وكان هناك جيش يدين قادته بالولاء المطلق للقصر . ومع كل هذه المعوقات تحقق الكثير ، وازداد الشعب التفافا حول حكومته التى كانت تطور

نفسها مع مطالب الجماهير ، وكانت الأجنحة التقدمية فيها تكتسب مزيدا من الشعبية على حساب الأجنحة الأكثر محافظة . ولم يكن أمام الملك ، إزاء هذا التأييد الشعبي الجارف لحكومته ، إلا أن يلجأ إلى التآمر من أجل إزاحة الحكم الوطني ، فكان حريق القاهرة ، أو الثورة المضادة التي أثبتت ، بعد وقت قصير ، فشلها الكامل ، وكشفت النظام الملكي في عجزه وتقلبه ووصوله إلى طريق مسدود .

لماذا ، إذن ، نتحدث عن هذه الفترة ، وما علاقتها بموضوعنا الأصلي ؟ السبب الأول هو أن هذه الفترة مجهولة لدى أبناء الجيل الأوسط والأصغر في عالمنا العربي بوجه عام ، وفي مصر بوجه خاص[١] . والكثير منهم لا يعرف عن هذا العهد إلا مجموعة من القوالب اللفظية التي تكرر ترديدها على أسماعهم إلى حد أنهم أصبحوا يأخذونها كما لو كانت من المسلمات المؤكدة ، كالحديث عن « الفساد » في عهد ما قبل الثورة — وعن « فشل التجربة الحزبية » وعن « تخبط الأحزاب وسعيها إلى مصالحها الضيقة » وعن « الأزمة التي انتهت إليها الديمقراطية الحزبية قبل الثورة » ، إلى آخر هذه العبارات التي يعرفها الجميع ، والتي تخفي في واقع الأمر أهم معالم تلك التجربة الخصبة إلى أبعد حد .

---

(١) يمكن القول إن عهد عبد الناصر بدوره أصبح تاريخا غير واضح المعالم بالنسبة إلى جيل الشباب الحالي ، ممن تقل أعمارهم عن الثلاثين . ذلك لأن العهد الذي تلاه ، والذي كان بدوره حكما فرديا ، لم يتح الفرصة لهذا الجيل كيما تكون له رؤية تاريخية متوازنة لعبد الناصر ، ومن هنا كان أبناء هذا الجيل إما متحمسين للعهد الناصري إلى درجة الرومانتيكية غير المرتبطة بالواقع ، وإما متأثرين بالدعايات المضادة التي تقدم للعهد صورة مشوهة غير واقعية أيضا . وهذا مثال آخر للتشويه الذي يلحق بالتاريخ من جراء القمع وكبت الحريات وتحريف كل عهد لتاريخ العهد السابق عليه .

أما السبب الثانى فهو تلك المواقف غير المنصفة التى وقفها هيكل من تلك التجربة .

كان هيكل ، منذ بداية نضجه الصحفى ، منتسبا إلى مدرسة « أخبار اليوم » فى الصحافة ، وهى مدرسة لها سمات خاصة ، أهمها الولاء للقصر الملكى وتأييد أحزاب الأقلية والدعاية لكل قوة معادية لحزب الأغلبية الشعبية ، أعنى الوفد . وكان قطب هذه المدرسة ومعلمها الأكبر هو « محمد التابعى » ، وهو صحفى مخضرم كان يؤمن بأهمية الإثارة الصحفية عن طريق الفضائح والجنس فى اجتذاب مزيد من القراء لأية جريدة . ومن الإنصاف لهيكل أن نقول إن مجرد انتمائه ، خلال فترة هامة من حياته الصحفية ، إلى دار « أخبار اليوم » لا يعنى بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الأسس التى قامت عليها هذه الدار . ولكن من الإنصاف للتاريخ أن نقول إنه لم يبد أى نوع من التمرد الواضح عليها .

كانت هذه الدار التى أنشئت أساسا لتلطيخ سمعة الوفد (وقد أثبتت انتخابات آخر سنة ١٩٤٩ أنها فشلت فى ذلك فشلا ذريعا) ، هى التى مجدت مجموعة الشباب التى كان ينتمى إليها أنور السادات ، وعلى رأسها المغامر المشبوه حسين توفيق . وهكذا كانت تروى عنهم حكايات أسطورية ، وكان الغطاء الوطنى لعملياتهم هو العداء لقوات الاحتلال البريطانى ، ولكن الهدف الحقيقى منها هو تخليص القصر من أعدائه ، عن طريق التصفية الجسدية ، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية فى ذلك الحين ، مصطفى النحاس .

ولقد تضمن « خريف الغضب » تعبيرات كثيرة تحمل فى طياتها اعترافا بالدور الوطنى الذى قام به الوفد ، وبالفارق الشاسع ، فى هذه الناحية ، بين الوفد وأحزاب الأقلية الأخرى . فهو مثلا يتحدث عن « حزب الوفد

المصرى الذى يقوده مصطفى النحاس والذى كان يمثل أغلبية الوطنيين فى مصر » . ويصدر حكما مثل : « أما الوفد ـــ وبرغم كل محاولات تزوير الانتخابات ـــ فقد ظل حزب الأغلبية ، يتمتع بتأييد شعبى لا ينازعه فيه أى حزب سياسى آخر » . كما يشير بوضوح إلى المعارك الدستورية المجيدة التى خاضها الوفد ضد القصر ، ويؤكد أن « كفاح » السادات ضد الوفد ومحاولاته اغتيال مصطفى النحاس واشتراكه فى مقتل أمين عثمان ، كل ذلك كان لصالح السراى ، وقد تحقق عن طريق علاقة السادات بالحرس الحديدى ، الذى يبدو أنه كان يقوم بدور « عمالة مزدوجة » ، لصالح القصر فى الواقع ، ولصالح الوطنية المتطرفة فى الظاهر ، وكان مثل كثير من القوى شديدة التطرف ، عاملا لحساب قوى شديدة الرجعية . بل إن هيكل يتحدث عن « صحافة القصر » (ويقصد أخبار اليوم ، حيث كان يعمل) التى راحت تصور هؤلاء الشباب على أنهم أبطال شعبيون ... وكل هذه كلمات صحيحة كل الصحة ، ومنصفة لتاريخ مصر فى تلك الفترة .

ولكن المفارقة تظهر حين يعود هيكل فيصدر أحكاما مناقضة ، يبرر بها استيلاء الجيش على السلطة فى ١٩٥٢ ، فيقول : « فى ذلك المناخ (الأربعينات) بدت السياسات المصرية التقليدية القائمة على المناورة والتوازن بين الإنجليز والقصر والوفد ـــ بدت شيئا فات أوانه لأنه يفقد صلته بالحقائق الجديدة يوما بعد يوم . كان لا بد من تغيير ، ولم تكن هناك فائدة ترجى من انتظار التغيير بواسطة حزب سياسى قديم أو جديد ، فقد كان التركيب الطبقى فى مصر لا يزال فى حالة سيولة ، الأمر الذى يمنع ظهور قاعدة اجتماعية صلبة يقوم عليها تنظيم سياسى حقيقى ويزدهر . وهكذا فإنه حين جاء التغيير ، كان مصدره هو القوة الوحيدة التى تمثل إرادة الاستمرار من ناحية ، وتملك قدرة العمل من ناحية أخرى ـــ الجيش » .

هنا يعود هيكل القديم، هيكل الخمسينات، إلى الكلام، على الرغم من أنه كان يكتب فى الثمانينات . فمن قال إن السياسة المصرية قبل الثورة قامت على المناورة والتوازن بين الإنجليز والقصر والوفد ؟ لقد كانت تقوم ، كما تدل عبارات هيكل نفسه التى اقتبسناها من قبل ، على صراع واضح المعالم بين الشعب ، ممثلا فى الوفد من جهة ، والقصر والإنجليز وأحزاب الأقلية من جهة أخرى . كان صراعا حول قضايا متبلورة تماما ، القضية الوطنية ـ الديمقراطية ـ حكم الدستور ـ توفير المطالب الشعبية . وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن أول ما حرصت عليه ثورة ٢٣ يوليو كان إسكات الصراع ، الذى يرمز له إعدام اثنين من العمال (خميس والبقرى) بالتهمة التقليدية (الشيوعية) فى الأيام الأولى للثورة ، ثم ظهور مختلف التنظيمات القائمة على فكرة التوازن ، لا الصراع ، وأولها هيئة التحرير .

وهكذا يتحدث هيكل حينا بطريقة تدل على أنه أدرك حقيقة القوى المتفاعلة فى تلك الفترة المظلومة من تاريخ مصر ، ولكنه سرعان ما يعود إلى موقفه التقليدى ، ذلك الموقف الذى وقفته ثورة يوليو منذ البداية ، وأعنى به وضع الأحزاب جميعا فى سلة واحدة وكأنها كلها خانت وفشلت وتنكرت للحركة الوطنية ، ثم الترويج لتلك الأسطورة التى لم يكن لها أى أساس من الواقع أو التاريخ ، وأعنى بها أنه « لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يأتى التغيير من حزب سياسى » ، تلك الأسطورة التى تريد أن تسدل ستارا من النسيان على تجربة ديمقراطية عظيمة ، كانت تبشر بتطورات وتصحيحات هائلة لمسارها ، لو كتب لها البقاء بعد إزاحة العقبات التى كانت تعرقل مسيرتها حينا وتبطئ حركتها حينا آخر .

من أجل هذا يقدم هيكل تبريرات لمجموعة الإجراءات التى أدت إلى القضاء على التجربة الحزبية فى مصر ، وهى إجراءات تكررت ، مع اختلاف

فى التفاصيل ، فى كثير من الأقطار العربية الأخرى حين قامت فيها حركة عسكرية مماثلة . وهكذا يذهب هيكل إلى أن الشرعية التقليدية فى بلاد العالم الثالث لها أساس قبلى أو دينى ، وحين تحاول أن تنتقل فى العالم الثالث إلى شرعية ذات أساس دستورى وقانونى ، تستند فى عملية الانتقال هذه إلى ضرورات الاستمرار ، وتمثلها « البيروقراطية » بما فيها القوات المسلحة ، وكذلك إلى شخصية الزعيم .

ولست أدرى على أى بلد من بلاد العالم الثالث ينطبق هذا الكلام ، لأن عمليات الانتقال التى تركز على القوات المسلحة وعلى شخصية الزعيم لا تمثل فى أية حال من الحالات تحولا نحو الشرعية الدستورية والقانونية . ولكن ما أعلمه حق العلم هو أن هذا الكلام حين يقال عن مصر بالذات ، يكون عدوانا صارخا على الحقيقة والتاريخ . فقد كانت فى مصر شرعية دستورية قائمة بالفعل ، وكانت تكافح ببطولة من أجل تطهير نفسها من القوى المعادية للدستور . وليس صحيحا أن حركة الجيش ، فى مصر أو غيرها ، كانت محاولة للانتقال من شرعية تقليدية إلى شرعية دستورية ، بل إن العكس هو الصحيح : إذ كانت الحركة فى أساسها انتقالا من تجربة ناضجة فى الشرعية الدستورية إلى نمط فى الحكم لا يكترث كثيرا بمعنى الشرعية ، ولا يعترف بالدستور إلا على الورق .

وبمثل هذه الفلسفة المضللة تم تبرير كافة الإجراءات التى اتخذت فى السنتين الأوليين للثورة ، من أجل التضييق على الأحزاب (وكان المقصود بها واقعيا حزب الوفد وحده) ، ثم فرض شروط صعبة التحقيق عليها ، ثم الادعاء بأنها لم تتمكن من تلبية هذه الشروط ، ثم يتكرر المسلسل المعتاد ، الذى أصبح « نموذجا » تحتذيه الانقلابات العسكرية فى كافة أرجاء العالم الثالث : إيقاف المسار الطبيعى للدستور ، وإلغاء الأحزاب والانتخابات ، والعمل بموجب

قرارات أو مراسيم ، مدة ثلاثة أشهر ، ثم ستة أشهر ، ثم سنوات وسنوات .
وفى كل حالة يجد النظام من يبرر له إجراءاته عن طريق « فلاسفة » قادرين على إقناع الناس ، أو إرغامهم على الاقتناع ، بأنهم يعيشون فى ظل شرعية من نوع جديد ، شرعية « ثورية » تتضاءل إلى جانبها المفاهيم « العتيقة » للشرعية .

هكذا فعل هيكل ، وهكذا فعل كثيرون غيره من منظرى الحكم التسلطى اللاديمقراطى ، ولكن حساب التاريخ لهيكل سيكون أشد عسرا ، لأنه كان أكثر من الآخرين ذكاء ووعيا ، ولأنه أدرك حقائق الأوضاع فى لمحات سريعة فى كتابه الأخير ، ولكنه سرعان ما عاد إلى طريقه المألوف ، طريق العداء للديمقراطية المرتكزة على أساس شعبى والمعبرة عن الإرادة الحقيقية للجماهير .

الفصل السادس

ورَّثه مصر ، ونسى !

فى كتاب هيكل عن السادات نقطتان تتسمان بالضعف الشديد ، مر عليهما المؤلف، بتعجل وبغير تحليل مقنع ، وإنما حاول أن يقدم لهما تعليلات أدت فى الواقع إلى زيادة موقفه ضعفا . هاتان النقطتان تأتيان عند بداية علاقة السادات بعبد الناصر والثورة المصرية ، وعند نهاية عهد عبد الناصر واختياره أنور السادات لخلافته . فكيف يصف هيكل هاتين اللحظتين الحاسمتين : لحظة انضمام السادات إلى تنظيم الضباط الأحرار، التى حصل فيها على جواز المرور إلى تاريخ مصر ، ولحظة تعيين عبد الناصر للسادات نائبا له ، قبل وفاته بوقت قصير ، وهى اللحظة التى ضمنت له دخول هذا التاريخ من أوسع أبوابه ؟

يقول هيكل فى « خريف الغضب » : « فى أواخر سنة ١٩٥١ أصبح أنور السادات عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار . وقد كان كل أعضاء اللجنة التأسيسية للتنظيم يعارضون انضمامه باستثناء جمال عبد الناصر . كانوا يعرفون السجل بطبيعة الحال .. وكان عبد الناصر يعرف يقينا بكل هذه الوقائع » .

ما هى هذه الوقائع التى أدت بأعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار إلى رفض انضمام أنور السادات إلى تنظيمهم ، والتى أصر عبد الناصر على قبوله فى التنظيم على الرغم من معرفته اليقينية بها ، وعلى الرغم من معارضة

جميع أعضاء اللجنة الآخرين لهذا القبول ؟ كانت هذه الوقائع ، كما شرح هيكل فى كتابه بإسهاب ، تشمل : الانضمام إلى الحرس الحديدى الذى كان يخدم أغراض الملك — السعى إلى تخليص الملك من أقوى خصومه السياسيين بالتصفية الجسدية — الاتصال برجال القصر وعلى رأسهم « يوسف رشاد » وتلقى رشوة مقدارها ألف جنيه من هذا الأخير « لكى يؤثث بيتا ويشترى سيارة ، ويبدأ حياة جديدة » وغيرها من الوقائع المثيرة للارتياب .

كيف إذن أصر عبد الناصر على قبول السادات فى التنظيم ، وتحمل بذلك مخاطرة أن يوصف بالدكتاتورية لأنه رجح صوته الوحيد على أصوات جميع الأعضاء الآخرين الرافضين ؟ يقدم هيكل فى هذا الصدد ما يسميه « اجتهادات » يحاول بها تفسير هذا الإصرار ، وهى اجتهادات لا تفسر فى الواقع شيئا ، بل يمكن الرد عليها بسهولة تامة . فمن الجائز أن عبد الناصر أراد معرفة أخبار القصر مستغلا علاقة السادات بيوسف رشاد . ولو صح هذا التعليل لكان من الواجب أن يبعد السادات عن التنظيم بمجرد نجاح الثورة وإغلاق القصر وطرد صاحبه من البلاد ، فما فائدة الاحتفاظ بعميل سابق للقصر بعد أن انتهت مهمته ؟ ومع ذلك فإن السادات لم يكن أول من خرج من أعضاء مجلس الثورة ، وإنما خرج الجميع وبقى هو !

وينطبق هذا الكلام نفسه على التعليل الآخر الذى قدمه هيكل ، وهو تضليل القصر عن أخبار الضباط الأحرار من خلال الصلة السابقة نفسها . ففى هذه الحالة أيضا كان من الواجب أن تنتهى مهمة السادات بمجرد نجاح الثورة .

أما تعليل عبد الناصر نفسه ، كما رواه لهيكل فيما بعد ، فهو « أردت أن أضع فى إطار الحركة كل هؤلاء الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسى فى مصر » . هنا أيضا نجد أنفسنا غير مقتنعين : هل أى ضابط اقترن اسمه بالعمل

السياسى يمكن أن يقبل فى التنظيم ، حتى لو كان العمل السياسى الذى مارسه عمالة مزدوجة وخدمة لأهداف القصر ، أى بكلمة واحدة ، حتى لو كان هذا العمل السياسى « خيانة » ؟ لو افترضنا أن حاجة التنظيم فى بدايته إلى عناصر نشطة وممارسة كانت هى التى أرغمت عبد الناصر على قبول شخصية مثيرة للشبهات كهذه ، فإن هذه الحاجة تنتهى تماما بمجرد أن ترسخ أقدام التنظيم ويصبح هو الذى يحكم مصر بلا منازع . ويبدو أن أعضاء مجلس الثورة قد نظروا إلى الأمر على هذا النحو ، بدليل قول هيكل إن هؤلاء الأعضاء ، بعد يوليه ١٩٥٢ مباشرة، « تجددت شكوكهم فيه ، بل وبدأ معظمهم يوجه إليه فى حضوره بعض الملاحظات الجارحة ، ولكن عبد الناصر كان يحميه » .

هناك إذن سر فى موضوع دخول السادات فى تنظيم الضباط الأحرار ، واستمرار عضويته فيه بعد أن انتفت الأسباب التى يقال إنها هى التى دعت إلى قبوله . ولا تقدم إلينا رواية هيكل أى تعليل مقنع لهذا السر ، بل إنها تترك الموضوع عائما ، وتكاد توحى بأن عبد الناصر كان لديه ميل خاص ، غير مفهوم إلى السادات ، على الرغم من علمه بتاريخه .

تلك إذن لحظة حاسمة فى تاريخ السادات ، وفى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، تركها هيكل غير مفهومة ، فهل كان هيكل يستخف بأهمية هذه اللحظة ، حين قدم تعليلاته غير المقنعة ، أم كان يخفى شيئا لا يريد أن يعلن عنه ، أم كان يستخف بقدرة القارئ على الشك والتساؤل ، أم كان — أخيرا — يؤمن بحق عبد الناصر المطلق فى أن يفعل ما يشاء بغير أسباب ؟

لنترك هذه اللحظة مؤقتا ، ولننتقل إلى لحظة أخرى أهم منها بكثير ، لحظة كانت مصيرية بحق ، هى تلك التى قرر فيها عبد الناصر أن يعين السادات بالذات ، ومن دون أبناء مصر الذين كانوا عندئذ يزيدون على الثلاثين

مليونا ، ليكون نائبا لرئيس الجمهورية ، وخليفته فى حكم مصر .

ونستمع ، مرة أخرى ، إلى ما يقوله هيكل .

فى فصل بعنوان « فى ظل عبد الناصر » يقول هيكل :

« كان طبيعيا أنه حين تعرض عبد الناصر للنوبة القلبية الأولى فى سبتمبر ١٩٦٩ أن يضع السادات على رأس لجنة تضم بعض القريبين منه وتتولى تسيير شئون الدولة فى غيابه . وعلى أى حال فإن هذه اللجنة لم يقدر لها أن تباشر عملا حقيقيا . فما لبث عبد الناصر أن نسى نوبته القلبية وعاد يمارس شواغله ومسئولياته . وفى ديسمبر عام ١٩٦٩ كان على عبد الناصر أن يشارك فى أعمال مؤتمر القمة العربى فى الرباط بالمغرب .. وعندما دعانى إلى الجلوس بجانبه بعد إقلاع الطائرة كما كان يفعل دائما ، فإنه أشار إلى بالجلوس وعلى وجهه ابتسامة ، وفوجئت به يقول : « هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ » ولم أكن أعرف . وقال لى : « كان أنور السادات سيمر على لكى يصحبنى إلى المطار ، وطلبت منه أن يجىء معه بمصحفه . ولم يفهم ما عنيت بهذا الطلب ، وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبا لرئيس الجمهورية فى غيابى » . وأبديت دهشتى وسألت عن السبب الذى دعاه إلى ذلك ، ومد عبد الناصر يده إلى ملف كان قد وضعه أمامه .. وكانت فيه برقية .. تقول إن هناك معلومات بأن الجنرال أوفقير يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى محاولة لاغتيال عبد الناصر أثناء وجوده فى المغرب .. وقد فكرت فى أنه إذا فرض وصدقت المعلومات هذه المرة وحدث شىء ، فإن أنور يصلح لسد الفترة الانتقالية .. وفى فترة الانتقال فإن دور أنور سيكون شكليا » .

ثم أضاف عبد الناصر : « إن الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن ... وعلى أى حال فهى فترة أسبوع على أرجح الأحوال » .

وتلا ذلك حديث طويل عن شواغل عبد الناصر الكثيرة خلال الفترة التالية ، تخلله حديث آخر عن فضيحة ارتكبها أنور السادات « وكان يمكن أن تكلفه منصبه كنائب رئيس الجمهورية ، وتغير بالتالى مجرى تاريخ مصر الحديث » ، وهى استيلاؤه بالقوة ، وعن طريق قرار جمهورى ، على قصر فى الهرم كان يملكه ضابط سابق اشتغل بالأعمال الحرة . ثم حانت ساعة موت عبد الناصر . « كان السادات لا يزال حتى ذلك الوقت هو نائب الرئيس رسميا . وبكل الشواغل التى ألحت على العمل الوطنى ، من مؤتمر الرباط إلى زيارة موسكو السرية إلى استمرار حرب الاستنزاف إلى مبادرة روجرز إلى المواجهة بين الملك حسين والثورة الفلسطينية فى الأردن ، فإن وضع أنور السادات كنائب للرئيس كان قضية منسية حتى وإن كان قد خطر للبعض — بما فيهم جمال عبد الناصر نفسه — أن الأمر قابل لإعادة النظر فيه . وهكذا بقى أنور السادات فى مكانه حتى هذه اللحظة الحزينة » .

معذرة ، أيها القارئ العزيز ، على هذا الاقتباس الطويل ، ولكن هذه اللحظة التى يصفها هيكل ، وهى اللحظة التى يجد فيها مناسبة لاستعراض مكانته (أجلسنى بجانبه كما كان يفعل دائما) ، والتى تحدث فيها عبد الناصر إلى هيكل بابتسامة وفاجأه بسؤاله الذى يحمل معنى الدعابة : هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ هذه اللحظة هى التى قررت مصير مصر ، ومعها الأمة العربية ، حتى يومنا هذا . فى هذه اللحظة بدأت المسيرة المشئومة المؤدية إلى زيارة القدس ، والصلح والتطبيع ، وترك لبنان والفلسطينيين لمخالب الوحش الصهيونى ، والانفتاح ، ونهب مصر ، ووصاية البنوك الدولية والأمريكية على اقتصادها ... هذه اللحظة التى يعرضها هيكل باستخفاف شديد ، بل وينتهز الفرصة للتفاخر بذاته وبقربه الدائم من الرئيس ، هى التى فتحت الطريق لكوارث مصر والعرب فى السبعينات ، ولهذا اقتبستها من كتاب

هيكل بالتفصيل .

ولكننى لم أقتبسها فقط لكى أبين التضاد المحزن بين جو الخفة والسهولة الذى كان يصفه هيكل فى سطوره ، وبين شبح المصير المأساوى الذى يطل من بين سطور هيكل ، ساخرا من القارئ ومن هيكل ، ومن عبد الناصر ، بل من الأمة العربية جمعاء ... كلا ، لم أقتبسها لغرض كهذا فقط ، وإنما اقتبستها لكى أشرك معى القارئ فى محاولة طويلة لاستخلاص المعانى البشعة التى تنطوى عليها هذه السطور .

أول هذه المعانى هو البساطة العجيبة التى اتخذ بها قرار خطير كهذا ونفذ على الفور : عبد الناصر يطلب إلى السادات أن يجىء معه بالمصحف أثناء مروره عليه ليصحبه إلى المطار . السادات لا يعرف السبب ، ولكن المفاجأة تنتظره ، يقسم اليمين ، وبذلك يتحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر القادم . هيكل نفسه لم يكن يعرف ، ولكن يتضح أن السبب هو تقرير عن مؤامرة محتملة فى المغرب لاغتيال عبد الناصر ، مؤامرة لم ينظر إليها عبد الناصر بجدية ، ولكن لا بأس من الاحتياط ! هكذا ، بلا استشارة حتى من أقرب المقربين ، يحدد الحاكم من سيخلفه فى حكم بلاده فى مرحلة من أحرج المراحل التى مرت بها طوال تاريخها الحديث ، ويقرر بذلك مصير أمته من بعده . لست أدرى ماذا يكون شعور القارئ حين يقرأ هذه السطور ، ولكننى أقول عن نفسى إننى شعرت بالإهانة حين وجدت مستقبلى ، ومستقبل أبنائى وبلدى ، يحدد بمثل هذا الاستخفاف ، دون أن تكون لى ، كمواطن ، كلمة ولا رأى ، ودون أن يصل صوتى عن طريق القنوات التى صاغتها تجارب طويلة للشعوب ، والتى تتيح للناس فى المجتمعات التى تحترم مواطنيها أن يختاروا من سيتحمل مسئولياتهم فى مستقبل الأيام .

ولكن لدى هيكل ، الطبع ، إجابة جاهزة ، إنه يقول للقارئ : لم يكن

هناك عندئذ ما يدعو إلى الانزعاج ، ولا حتى إلى الاهتمام ، فقد كانت المسألة مؤقتة ، لن تطول أكثر من أسبوع ، وكانت مجرد احتياط من أن تقع مؤامرة الاغتيال فى المغرب ، وكل ما فى الأمر هو أن السادات قد خدمه الحظ ، طوال السنوات التالية ، لأن عبد الناصر وضعه على كرسى الخلافة ونسى أن يبعده عنه — وهو معذور فى هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جساما ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع التافه ، موضوع تعيين السادات خليفة له فى حكم مصر !

مرة أخرى ، لست أدرى ، ماذا يكون شعور القارئ وهو يستمع إلى حجة هيكل هذه ، ولكننى أقول عن نفسى إننى شعرت بإهانة أخرى ، إهانة لعقلى وتفكيرى وآدميتى يوجهها إلى واحد من أولئك الذين عاشوا طويلا فى جو الاستخفاف بعقول الناس والاستهانة بهم .

فحسب أقوال هيكل نفسه ، وقع اختيار عبد الناصر على السادات لتسيير شئون الدولة مرتين ، لا مرة واحدة . الأولى عند إصابته بنوبة قلبية ، والثانية عندما قرأ تقارير الأمن عن المؤامرة المغربية الأمريكية المحتملة . وهذا معناه أن الاختيار لم يكن عشوائيا على الإطلاق ، بل كان متعمدا مقصودا . ولا شك أن الإصابة بنوبة قلبية هى إنذار كاف لأى إنسان ، أى أن احتمالات النهاية لا بد أن تكون قد طافت ، ولو من بعيد ، بذهن عبد الناصر . وعلى ذلك فحين يختار خلفا له ، فإنه يعلم أن هذا يمكن أن يكون اختيارا لمستقبل بلاده . وحتى لو كانت مؤامرة المغرب مجرد إشاعة ، فإنها تستدعى اختيار أصلح العناصر للخلافة ، على سبيل الاحتياط أيضا .

ولكن الكارثة الكبرى فى الموضوع كله تكمن فى نقطتين :

الأولى هى قول عبد الناصر : « إن الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن » .. إذن كان حكم مصر

« بالدور » .. مجموعة الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة ، يتناوبون على المنصب الخطير واحدا بعد الآخر ، وفى النهاية ، وفى لحظة مرض القلب والتهديد بالاغتيال ، بقي واحد منهم ، فلا بد إذن أن يأخذ نصيبه — ونصيبه هو أن يكون خليفة لحاكم مصر .

إننى لا أشك لحظة واحدة فى ذكاء هيكل الذى كان بالفعل غير عادى . ولكن الأمر الذى يذهلنى بحق هو : كيف فات على هيكل ، بكل ذكائه ، المغزى الواضح والصارخ لهذا الكلام ؟ كيف يعجز هيكل الموهوب عن أن يدرك أنه ، بكلامه هذا ، يسىء إلى عبد الناصر أبلغ إساءة ، ويهين مصر كلها إذ يصورها على أنها « عزبة » لا بد أن يتناوب على امتلاكها مجموعة الضباط هؤلاء « بالدور » ؟ فكر جيدا أيها القارئ فى المقياس الذى يتم على أساسه الاختيار : ليس الكفاءة ، التى لم يثبت السادات خلال حكم عبد الناصر — حسب كلام هيكل — شيئا منها ، وليس الوطنية ، فقد كان عبد الناصر وهيكل يعلمان أنه كان فى وقت ما عميلا مزدوجا ، وليس وجود برنامج لإنقاذ الوطن لديه ، فقد كان بشهادة هيكل عاكفا على حياته الخاصة ، عزوفا عن القراءة والاطلاع وتثقيف نفسه ، وإنما المقياس هو أنه الوحيد الذى لم ينل بعد نصيبه من الفطيرة .. هو أن « عليه الدور » !

أما الكارثة الثانية ، فى هذه القصة الحزينة ، فهى أن عبد الناصر ، بعد أن وضع السادات فى هذا المنصب الخطير ، تركه فيه لأنه « نسى » . هكذا يريدنا هيكل أن نصدق أن شيئا بالغ الأهمية كهذا يمكن أن ينسى بمثل هذه السهولة . ولكى يبرر لنا هذه الحجة الهزيلة يعدد أمامنا المشكلات التى انشغل بها عبد الناصر خلال الفترة التى كان السادات فيها « منسيا » فى منصب الرجل الثانى فى مصر : لقد كانت تلك مشكلات خطيرة حقا ، ولكن خطورتها ذاتها كانت تفرض على عبد الناصر أن يزداد تذكـرا لموضوع

خلافته ، لا أن ينساه . فالسادات أمامه كل يوم ، وهو بالقطع لم يحصل على قرار التعيين نائبا لرئيس الجمهورية ثم أسرع يختبئ فى مكان بعيد ، داعيا الله أن ينساه الرئيس إلى أن يموت ! وخطورة المشكلات التى كان يواجهها عبد الناصر هي ذاته أقوى مبرر لكى يتذكر فى كل لحظة أن الوطن فى خطر ، وأن من يخلفه فى حمل الأمانة ينبغي أن يكون على مستوى المسئولية .

وحتى لو لم تذكره بموضوع الخلافة تلك الأحداث الجسام ، فإن تصرفات السادات ذاتها لا بد أنها أدت إلى تذكيره بنوع الاختيار الذى قام به : فقد حدثت فضيحة القصر الذى استولى عليه السادات ، بإلحاح من زوجته ، من ضابط سابق اشتغل فى الأعمال الحرة (لا أدرى من أين استولى عليه هو الآخر ، أو من أين أتته الأموال لشرائه) — حدثت تلك الفضيحة « بعد » تعيين السادات نائبا للرئيس ، وحسب رواية هيكل فإن عبد الناصر غضب غضبا شديدا عندما علم بما حدث ، ومع ذلك فإن هيكل يذكر ، بطريقة غير مفهومة ولأسباب غير واضحة ، أن عبد الناصر عندما هدأ غضبه كافأ السادات بقصر على النيل ! وهكذا فإن عبد الناصر ، كما يصوره لنا هيكل ، تلقى إنذارا واضحا بنوع السلوك الذى يمكن أن يسلكه السادات عندما يترك له حكم مصر . فإذا لم تكن المشكلات الدولية والقومية والوطنية الخطيرة التى كانت تشغل عبد الناصر ، عندئذ ، كفيلة بأن تذكره بضرورة اختيار خليفة وطنى قادر على التصدى لها ، ألم يكن اغتصاب السادات لبيت لا يملكه ، لمجرد أنه أعجب زوجته ، كافيا لكى ينبه عبد الناصر إلى عيوب الرجل الذى ائتمنه على أمته كلها من بعده ؟ ومع ذلك فإن عبد الناصر ، حسب رواية هيكل ، كافأ السادات بقصر على النيل بعد فترة غضب قصيرة .. أيريد هيكل أن يوحى لنا بأن تصرفات مثل الاستيلاء على بيوت الآخرين لم تكن تصدم الحس الأخلاق لعبد الناصر ؟ أيريد أن يقنعنا بأن

مغتصب مال الغير فى نظره يستحق مكافأة ــ مكافأة عاجلة هى قصر على النيل ، ومكافأة آجلة هى النيل كله ، بأرضه وشعبه ؟

ولنتأمل تناقضا آخر : لقد كان عبد الناصر ، عندما عين السادات نائبا له ، يتحوط ضد مؤامرة تشترك فيها عناصر مغربية وتدبرها المخابرات المركزية الأمريكية . ولكن عبد الناصر كان من جهة أخرى ، يعرف أن للسادات ميولا أمريكية قوية . وحسبنا دليلا على هذا أن نشير إلى مقال كتبه السفير الأمريكى الأسبق فى مصر ، لوشيوس باتل ، تحدث فيه عن رحلة رتبها للسادات وزوجته عام ١٩٦٦ ، وعاد بعدها السادات مبهورا بكل ما هو أمريكى . ويهمنا فى المقال إشارة الكاتب إلى أن عبد الناصر ، عندما قابله بعد ذلك فى إحدى الحفلات ، قال له : « صاحبكم هذا ، أنور السادات ، معجب ولهان بأمريكا » ، فلما قال له السفير : « وما العيب فى ذلك ، ليته كان هناك آخرين لديهم نفس الاتجاه فى هذا البلد » ضحك عبد الناصر ، « ولكن كانت هناك دائما مسحة من الاستخفاف فى تعليقاته »[١] . وبطبيعة الحال فإن مسلك السادات تجاه أمريكا خلال سنوات حكمه تجعلنا لا نشك للحظة واحدة فى صحة هذه الرواية . ولكن ، كيف يكون عبد الناصر على علم بميول السادات الأمريكية القوية طوال هذا الوقت ، ثم يختاره نائبا بسبب مؤامرة أمريكية محتملة ؟ هل يقبل الأب الذى يتعرض للتهديد بالقتل من أفراد عصابة معينة ، أن يختار أحد هؤلاء الأفراد وصيا على أبنائه من بعده ؟

إن قصة خلافة السادات لعبد الناصر ، والاختيار المشئوم الذى حدث فى

---

(١) Lucius D. Battle : Anwar Sadat Remembered . SAIS REVIEW. WINTER 1981-82, NO. 3.

أحد أيام ١٩٦٩ ، هى قصة فريدة من نوعها . ولقد كانت الرواية التى أوردها هيكل عنها مليئة بالمتناقضات والمفارقات التى تستخف بعقل القارئ وتهين ذكاءه ، ولا أظن أن أحدا ، حتى هيكل ذاته ، يمكن أن يقتنع بهذه الرواية المهلهلة . وهنا يبرز سؤال هام : إذا كان تفسير هيكل لاختيار عبد الناصر للسادات مكشوفا فى ضعفه إلى هذا الحد ، فما الذى جعله يلجأ إليه ؟

أغلب الظن أن هيكل اضطر إلى ترويج هذا التفسير الهزيل لأنه وجد نفسه أمام سؤال محرج ، تسأله تلك الأجيال الشابة الجديدة التى تنظر إلى عبد الناصر على أنه أعلى نماذج الوطنية ، والتى رأت بنفسها ما لحق بمصر والعرب من انهيار فى عهد السادات . هذا السؤال هو : كيف اختار زعيم كبير كعبد الناصر خليفة مختلفا عنه فى كل شيء مثل أنور السادات ؟ ومما يزيد هذا السؤال تعقيدا ، أن هيكل أكد بصورة قاطعة أن عبد الناصر كان يعرف كل شيء عن السادات : كان يعرف ماضيه مع القصر ، وميله إلى الاستمتاع بحياته بكل الطرق فى حاضره ، وانبهاره بالأمريكان ، أعداء الوطن العربى منذ عام ١٩٦٧ على الأقل . وإذن يعود السؤال بإلحاح : كيف يقبل زعيم وطنى أن يأتمن شخصا مناقضا له فى كل شيء على وطنه من بعده ؟ من أجل محاولة الإجابة على هذا السؤال المحرج ، اضطر هيكل إلى أن يتحدث عن تعيين نواب رئيس الجمهورية « بالدور » ، وعن « نسيان » الرئيس لنائبه فى مكانه إلى أن خلفه بعد موته . أعنى ، بالاختصار ، اضطر هيكل إلى أن يلفق إجابة لا تقنع أحدا .

وفى اعتقادى ، أولا ، أن هذا سؤال خطير وجوهرى ينبغى ألا يقابل بأى استخفاف ، لأنه يتعلق بمصير الأمة العربية كلها ، الذى قامر به السادات على مائدة أمريكا بعد أن أعطاها ٩٩٪ من أوراق اللعبة ، ومن ثم فلا بد أن نلح فى المطالبة بتفسير له . وفى اعتقادى ثانيا أن من المستحيل تقديم إجابة مقنعة عن هذا السؤال فى إطار الموقف الذى يمثله هيكل : أعنى موقف الدفاع على طول

الخط عن عبد الناصر ، والهجوم على طول الخط على السادات . فلكى نجيب عن هذا السؤال الحيوى إجابة مقنعة ، لا بد أن نكون أكثر تعمقا فى تحليلنا من أن نتقيد بهذا الاستقطاب الناصرى ــ الساداتى . وسأقوم ، من جانبى ، بمحاولة لتفسير هذه الظاهرة التى تبدو مستعصية على الفهم ، آملا أن ينظر القارئ إلى هذا التفسير على أنه حافز للتفكير ، من حقه أن يقتنع به أو لا يقتنع ، ولكن من واجبه أن يفكر فيه بإمعان .

إن الزعيم الذى يحكم حكما غير ديمقراطى لا يقبل بجانبه إلا الأعوان الذين يطيعون ، وينحنون ، ولا يعارضون . وحين يسود الطابع الفردى فى الحكم ، يظل الأعوان المحتفظون بكرامتهم والمتمسكون بآرائهم ومواقفهم ، أو حتى أولئك الذين يخالفون الزعيم لمصالح شخصية ، يظل هؤلاء يُستبعدون واحدا بعد الآخر ، حتى لا يبقى فى النهاية إلا الرجل الذى يقول دائما : نعم . ولقد اقترب هيكل من الحقيقة دون أن يشعر حين قال ، فى نفس الفصل الذى اقتبسنا منه من قبل : « كما حدث من قبل ، وكما سيحدث فيما بعد ، فإن طبيعة أنور السادات المستعدة للخضوع أمام الأقوى كانت هى التى حكمت موقفه . كانت أحسن أيامه هى تلك التى كان يستطيع فيها أن يلتصق بشخصية قوية » وإذا كان هيكل قد قصد بهذه الشخصية القوية ، فى كلامه السابق ، المشير عبد الحكيم عامر ، فإن هذا الحكم يمكن أن ينطبق على مسلك السادات بوجه عام ، وإن كان ذلك المسلك فى نظرنا واعيا متعمدا ، وليس مجرد تعبير عن شخصية ميالة للخضوع والالتصاق بالأقوياء .

كان السادات أذكى من الجميع لأنه أدرك قانون اللعبة : اترك الزعيم يمارس قوته وإياك أن تقول له « لا » مهما فعل . ولكن ما ينبغى أن نتذكره هو أن هذا القانون يحتاج إلى طرفين : طرف يلتزم بالقبول والخضوع ، وطرف آخر ــ هو الزعيم ــ يجعل مقياس قرب الناس منه هو مدى خضوعهم له ، ومدى تخليهم عن إرادتهم الخاصة لكى يكون هو صاحب الإرادة

الشاملة . فلكى ينجح « الأذكياء » ممن يجيدون فن طأطأة الرأس (حتى يعْلو فيما بعد ، كما تقول أغنية سيد درويش المشهورة) ، لا بد أن يكون الطرف الآخر الذى يتعاملون معه من ذلك النوع الذى لا يستطيع أن يتحمل أى شخص يبدى استقلالا فى رأيه . ولذا كان من المستحيل أن ينجح « أهل الطأطأة » مع أى زعيم ديمقراطى .

وليتأمل القارئ دلالة العبارة التى يقول فيها هيكل : « كان بيت السادات فى الهرم هو المكان الوحيد الذى يستطيع فيه جمال عبد الناصر أن يذهب لكى يقضى بين حين وآخر ساعات مع صديق لم يكن يضغط على أعصابه بإثارة مناقشات سياسية أو عسكرية ملحة » . هكذا كانت « الراحة » هنا تكمن فى أن يكون الصديق مطيعا لا يناقش فى الأمور الهامة ، بينما الذين كانوا يناقشون ، ويعارضون ، فى ظروف ما بعد هزيمة ٦٧ التى كانت تقتضى إعادة النظر فى كل شىء ، هؤلاء لم يكونوا « مريحين » .

وهكذا نصل إلى القاعدة الهامة التى تحكم عملية الخلافة على السلطة فى الحكم غير الديمقراطى : إن الحاكم ، نتيجة لانفراده بالسلطة يشعر بأهمية القوة ويستأثر بها ، وبالتالى لا بد أن يزيح من طريقه كل من يحاول الحد من هذه القوة عن طريق المعارضة ، وكل من يرفض انفراده بالقرار . وهكذا يكون الضعيف الراضخ ، هو الذى يبقى فى النهاية بعد سلسلة التصفيات . وبعبارة أشد وضوحا ، فإن ظاهرة السادات إفراز طبيعى للحكم المطلق ، وأسلوب الحكم الذى انتهجه عبد الناصر كان لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى خليفة مثل أنور السادات .

وهنا تتضح لنا صفة تبدو على قدر كبير من الغرابة ، ولكنها تفسر الموضوع الذى نحن بصدده تفسيرا كاملا : فالحاكم القوى يؤدى فى هذه الحالة — بصورة حتمية — إلى الحاكم الضعيف ، والمتشدد أمام قوى الاستعمار فى الخارج والطبقات العليا فى الداخل يفرز المهادن للاستعمار ، الذى يستسلم

أمام الطبقات العليا ويسير فى ركابها . وبعبارة أخرى فإن كل مظاهر الاختلاف بين عبد الناصر والسادات لا تتعارض مع كون الثانى استمرارا للأول ونتيجة طبيعية له . هذه حقيقة ينبغي أن نتنبه إليها جيدا : إذ أن من يسمع أحدا يتحدث عن وجود استمرارية بين عبد الناصر والسادات ، يتصور أنه يقصد وجود تشابه بين العهدين فقط ، ولكن حقيقة الأمر أن هناك استمرارية مع التضاد : أعنى أن يكون الحاكم المهادن والمستسلم هو الامتداد الطبيعى للحاكم القوى المتشدد ، على الرغم من كونه نقيضا له ، بل « بسبب » كونه نقيضا له .

هذا هو التفسير الذى أعتقد أنه هو وحده القادر على الإجابة عن ذلك السؤال المحرج ، المحير ، الذى طرحناه من قبل ، وأعنى به : كيف يمكن أن يختار الحاكم الوطنى ، بنفسه ، خليفة غير وطنى ، يأتمنه من بعده على أمته وهى تمر بأخطر مراحل حياتها ، وتسعى بمشقة شديدة إلى التخلص من براثن عدوان جاثم على صدرها ؟ فلنقل إن هذا ، على الأقل ، هو اجتهادى ، ومن حق أى شخص أن يعترض علىّ ، ولكنه سيكون ملزما بأن يقدم تفسيرا أفضل ، يعلل جوانب الظاهرة كلها . وكل ما آمله هو ألا يبلغ به الاستخفاف بعقولنا حدا يجعله يكرر شيئا مما قاله هيكل فى هذا الموضوع .

وسواء أكان التفسير الذى أقدمه مقبولا أم غير مقبول ، فليتذكر القارئ دائما أن الهدف من هذا الحديث الطويل ، بل من كل ما قلته وسأقوله فى هذا الكتاب ، ليس إحراج هيكل ، ولا انتقاد السادات أو عبد الناصر ، وإنما هو قبل كل شىء دعوة إلى التفكير فى ذلك الجو العام الذى عاش فيه كل من شارك فى مأساة العرب خلال العقود الأخيرة .

ذلك الجو الذى يسمح للحاكم أن يختار خليفته بأكثر الطرق عشوائية ، وكأنه يغير لونا لملابسه ويستبدل به لونا آخر ، دون أن يستشير أحدا ، أو يحتكم إلى شعب ، أو حتى أن يسأل صديقا مقربا ...

ذلك الجو الذى يتم فيه للحاكم اختيار خليفته وهو على علم تام بسجله الطويل غير المشرف ، بعد أن تجمعت النذر التى توحى إلى الحاكم بأن نهايته يمكن أن تحين ... .

ذلك الجو الذى يكون فيه معيار اختيار حاكم المستقبل هو أن « عليه الدور » وأنه مطيع ، مريح ، لا يجادل ولا يناقش ، أى بالاختصار ، بحث الحاكم الموجود عن راحته هو ، بدلا من تفكيره فيما يمكن أن يحدث لأمته فى مستقبلها المحفوف بالأخطار ، لو تولى أمورها خَلف من هذا النوع ...

ذلك الجو الذى يختار فيه الحاكم خليفته ثم « ينسى » ، ويمتد به النسيان شهرا وراء الآخر ، فى أحرج فترات التاريخ ، حتى يموت ناسيا ...

وأخيرا ، ذلك الجو الذى يسمح لكاتب بأن يروى لنا هذا كله دون أن تطرف له عين ، ودون أن يرى فيه أى خطأ ، بل يحكى قصة التلاعب بمصير أمة وكأنها حكاية مسلية ، ويجد مع ذلك من يدافع عنه ، ويصفق له ، ويعامله كما لو كان شهيدا للحرية والديمقراطية .

إنها قصة حزينة ، وأشد جوانبها مدعاة للحزن هو أن كل الأطراف فيها مدانون ، وكلهم يسهمون فى تلك الجريمة الكبرى التى لم ترتكب النظم اللاديمقراطية ما هو أفظع منها — جريمة هدم العقول .

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الانطباع الذى يقدمه إلينا هيكل عن علاقته بالسادات هو أنه كان شديد القرب منه فى السنوات الأولى من حكمه ، ثم اختلف معه بعد عام ١٩٧٤ ، فى الوسائل أولا ، وبعد ذلك فى الغايات والأهداف العامة . وهو لا يدع لنا أى مجال للشك فى التوحد بينه وبين السادات خلال تلك السنوات الأولى . « كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان » ... « فى السنوات الأربع الأولى كنت أقرب إليه من أى إنسان آخر » .. « كانت هناك فترة فى علاقاتنا توحدت فيها مقاصدنا ... فكلانا كان يطلب سلاما قائما على العدل فى الشرق الأوسط ، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة ، والعالم العربى موحدا وقويا » . « أعتقد أننى لعبت دورا مؤثرا .. فى المداولات والمشاورات السياسية التى أدت إلى اختيار السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر » .

هذه الاعترافات ليست فى الواقع مقصودة لذاتها ، بل إن الهدف منها هو أن يرد هيكل ، فى الصفحات الأولى من كتابه ، على ذلك الاعتراض الذى يمكن أن يوجهه أكثر الناس سذاجة إلى هيكل حين يقرأ ما كتبه عن السادات فى « خريف الغضب » : كيف تهاجم السادات إلى هذا الحد مع أنك كنت من أقوى دعائم حكمه ؟ وهكذا قرر هيكل ، بذكاء شديد ، أن ينزع مخالب القارئ المعترض منذ البداية ، ويقول له فى الصفحات الأولى : نعم ، لقد كنت قريبا جدا منه ، ولكن طريقينا قد افترقا فيما بعد لأسباب متعلقة

بالمبادئ السياسية .

هذا اعتراف يؤدى ، إذا ما صدقه القارئ ، إلى استبعاد أية شبهة للتناقض بين مواقف هيكل القديمة والجديدة ، وإلى تجريد سلاح كل من يحاول الإشارة إلى الاندماج والانسجام التام الذى كان قائما بين هيكل والسادات فى وقت من الأوقات ، وإلى إعطاء هيكل كل الحق فى هجومه المتأخر على السادات ، بعد أن كان من أقوى أنصاره .

ولكن ، هل يفلح هذا الدفاع حقا فى تبرئة هيكل من تهمة التناقض ، والتقلب من عهد إلى عهد ؟ فى رأيى الخاص أنه لا يفلح .

ذلك لأن هيكل قد ارتكب فى كتابه خطأ قاتلا ،هو إشاراته الطويلة إلى الجوانب الشديدة السلبية فى تاريخ السادات قبل أن يتولى الحكم . هذه الإشارات لو كانت قد صدرت عن كاتب محايد لم يرتبط بالسادات فى أى وقت ارتباطا عضويا وثيقا ، لكانت مصدرا عظيم القيمة للمعلومات عن عادات وممارسات حاكم مثير للكثير من الجدل . ولكن صدورها عن هيكل بالذات يلحق به هو ذاته أفدح الأضرار .. ذلك لأننا لن نجد عندئذ عذرا نبرر به تعاطف هيكل مع السادات « كإنسان » فى السنوات الأولى من حكمه ، أعنى فى وقت كانت فيه جميع عيوب السادات السابقة معروفة للجميع . فكيف تعاطف هيكل مع السادات كإنسان فى الوقت الذى كان يعرف فيه عنه كمية هائلة من المعلومات تشينه إلى أبعد حد كإنسان ؟ إننا لو شئنا الدقة لقلنا إن ما قاله هيكل ، أخيرا ، عن طفولة السادات وشبابه والسنوات التى قضاها « فى ظل عبد الناصر » بكل ما اتسمت به من فساد ورشاوى واتصال بجهات مريبة وانتفاع من أثرياء العرب — كل ذلك لا يدين هيكل فى تعاطفه بعد ذلك مع السادات فحسب ، بل يدين عبد الناصر فى قبوله شخصا كهذا ضمن المسؤولين فى حكمه ، ثم وقوع اختياره عليه هو بالذات ليكون خليفة له . والأهم من ذلك أن هذه المعلومات تدين أسلوب الحكم الذى يسمح

لشخص يتسم بكل هذه العيوب بأن يصمد طوال كافة تقلبات العهد ، ثم يصعد إلى المرتبة العليا التى لا ينازعه فيها أحد . هذه كلها أمور واضحة ، لا تشفع فيها كلمات هيكل التى حاول أن يخفف بها مرارة الحقيقة فى الصفحات الأولى من كتابه .

ولكن يبدو أن هيكل لم يكن مرتاحا كل الارتياح إلى العذر الذى قدمه لقرائه ، ولم يكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى أنهم سيقتنعون به . وهكذا نراه بعد قليل يقدم عذرا آخر فيقول : « وأظن أيضا أننى لم أكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، لكنى تصورت أن أعباء المنصب ووقر المسؤولية سوف تقوى كل العناصر الإيجابية فى شخصيته ، وسوف تساعده فى التغلب على جوانب الضعف فيها . كان فى ذهنى باستمرار نموذج الرئيس الأمريكى هارى ترومان ، الذى خلف فرانكلين روزفلت فى مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد بدا ترومان فى ذلك الوقت ، وبعد روزفلت ، شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن تقود الصراع الإنسانى الكبير فى الحرب العالمية الثانية إلى نهايته المطلوبة والمحققة . ولكن ترومان ، أمام تحدى التجربة العملية ، نما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث . ولقد تصورت أن نفس الشىء يمكن أن يحدث للسادات » .

هنا يواصل هيكل أسلوبه فى مخاطبة الناس كما لو كانت عقولهم ملغية . فهو الآن يقول ، مبررا تقلباته : نعم ، لقد كنت أعرف أن فى الرجل عيوبا ، ولكنى تصورت أن الحكم سيصلحه ! ما الذى يرغمك على هذا التصور يا سيد هيكل ؟ ألم يخطر ببالك الاحتمال الآخر ، والأوضح ، وهو أن الحكم والقوة ستزيده فسادا ؟ وهل كانت مجموعة العيوب التى أحصيتها فى مختلف مراحل حياته ، من النوع الذى يمكن أن ينصلح تحت وطأة مسؤوليات الحكم ؟ إنك تتحدث عن تقوية العناصر الإيجابية فى شخصيته ، والتغلب

على عناصرها السلبية . ولكنا لم نسمع منك ، طوال الفصول التى تحدثت فيها عن السادات قبل توليه الحكم ، ذكرا لأى عنصر إيجابى ، فعلى أى شىء إذن كنت تعلق آمالك ؟

أما قصة روزفلت وترومان ، فهى أقبح عذر يمكن تصوره لأقبح ذنب . ذلك لأن أحدا لم يقل عن هارى ترومان إنه أصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث . فتاريخ ترومان يرتبط فى الأذهان بقرار بشع استهل به حكمه ، وما زالت الإنسانية تلعنه من أجله حتى اليوم ، وهو قرار إلقاء القنبلتين الذريتين فى هيروشيما ونجازاكى — وهما القنبلتان الذريتان الوحيدتان اللتان استخدمتا ضد البشر حتى اليوم . فهل هذا ما يقصده هيكل بعبارة « قيادة الصراع الإنسانى الكبير فى الحرب العالمية الثانية إلى نهايته المطلوبة » ؟ أما فى أذهاننا نحن العرب ، فإن اسم ترومان يرتبط بتاريخ أسود ستلعنه من أجله كل أجيالنا التالية : هو القيام بأهم دور فى قيام دولة إسرائيل ، والاعتراف بها بعد خمس دقائق من إعلان قيامها ، والضغط على أكبر عدد ممكن من دول العالم من أجل الموافقة على قرار الأمم المتحدة بشأنها . فهل هذه هى الأسباب التى أصبح من أجلها ترومان ، فى نظر هيكل ، واحدا من أعظم رؤساء أمريكا فى العصر الحديث ؟ أستطيع ، من وجهة نظرى الخاصة ، أن أعطى هيكل كل الحق فى تشبيهه لأنور السادات بترومان ، إذا كان المقياس الذى نتبعه هو مقدار الخدمات التى يؤديها الرئيس لدولة إسرائيل !

إنها ، إذن ، حجج لا تقنع أحدا ، تلك التى ساقها هيكل لتبرير ارتباطه الوثيق بالسادات فى السنوات الأولى من حكمه . ولم يكن اختياره أن يستخدم حججا متهافتة كهذه إلا حلقة أخرى فى سلسلة التعتيم الفكرى الذى يلجأ إليه أولئك الذين نشأوا ، وازدهروا ، وترعرعوا ، فى ظل نظم حكم متسلطة ، لا ديمقراطية ، تستخف بعقول الناس وتستهين بذكائهم .

وحقيقة الأمر أن قصة ارتباط هيكل بالسادات أطول وأعقد من ذلك

بكثير ...

هناك شواهد كثيرة وقوية على أن حكم عبد الناصر كان يضم ، فى سنواته الأخيرة على الأقل ، « أجنحة » متنافسة ومتعارضة . كان هناك الجناح العسكرى الممسك بقوة الجيش ، والملتصق بالمشير عامر (شمس بدران وقادة الأسلحة المختلفة قبل ١٩٦٧) . وكان هناك الجناح التنفيذى الملتصق بعبد الناصر فى عملية الحكم (سامى شرف ، شعراوى جمعة ، محمد فايق ، إلخ ...) وكان يقود هذا الجناح على صبرى . وكان هناك الجناح الهادئ ، المتربص ، الذى يحتفظ بعلاقاته بعبد الناصر بحذر شديد ، دون التورط فى ممارسات تثير المتاعب : أنور السادات ، محمود فوزى ، سيد مرعى ، حافظ بدوى . وأكاد أجزم بأن هيكل كان ينتمى إلى هذا الجناح الأخير . فالشواهد قوية علي أن هيكل كان من مجموعة أنور السادات قبل أن يتولى هذا الأخير الحكم بوقت غير قصير .

ويكفى ، كمثال واحد للتدليل على ذلك ، أن أستشهد بما قاله هيكل نفسه فى مقاله الذى أشرت إليه فى موضوع سابق : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » . فهو فى هذا المقال يروى قصة اعتقال عبد الناصر لأحد المثقفين المرتبطين بهيكل فى جريدة « الأهرام » ، وكيف غضب هيكل ولازم بيته أياما دون أن يفاتح عبد الناصر فى الموضوع . والذى يهمنا فى هذا أن أنور السادات كان هو الذى اتصل به قائلا : « ما هذا الذى تفعله ؟ إنك تترك الجو هنا لكل من يريد أن يستثير ويحرض » ثم قال : « اتصل به (بعبد الناصر) فورا وتحدث معه بنفسك ، ولا تترك المجال مكشوفا لآخرين » . وبعد يومين عاود السادات الاتصال بهيكل قائلا : « يظهر أنك جننت . لماذا تترك الأمر بينك وبينه لكل من يريد أن يتبرع بكلمة ؟ » .

هنا يظهر بوضوح أنه كانت هناك مجموعتان ، واحدة يمكن أن تحرض عبد الناصر ضد هيكل ، وأخرى حريصة على سلامة هيكل ضد المجموعة

الأخرى ، وفيها أنور السادات . ولا شك أن تطوع السادات بكل هذه النصائح إلى هيكل يدل على أنهما كانا ينتميان إلى معسكر أو جناح واحد .

وربما وصف البعض هاتين المجموعتين وصفا أيديولوجيا ، فقال إن الأولى (على صبرى) يسارية ، والثانية (السادات) يمينية ، ولكن هذا فى رأيى وصف لا يصدق إلا فى حدود ضيقة . فقد تعاملت المجموعة الأولى بالفعل مع السوفييت فى وقت كانت مصالحهم فيه تقتضى ذلك ، وأنا أشك جدا فى أن يكون هناك أى أساس أيديولوجى حقيقى لهذا التعامل . أما مجموعة السادات فكان موقفها أوضح ، هو الميل الشديد إلى الجانب الأمريكى ، وإن كان هيكل ، داخل هذه المجموعة ، أشد حذرا وأقل انكشافا بكثير من الآخرين .

وعلى أية حال فإن الأحداث التالية أثبتت صحة هذا التقسيم إلى جناحين حول عبد الناصر : إذ أن الخلافات بين الجناحين خرجت إلى العلن بعد موت عبد الناصر ، وكان فرسان المجموعة المحيطة بالسادات هم هيكل ومحمود فوزى (الذى عينه السادات رئيسا للوزراء) ، وبذل هيكل ، كما سنرى فيما بعد ، مجهودا خارقا للعادة لكى يفضح المجموعة الأخرى ويبرر إلقاء السادات بأهم أعضائها فى السجون ، ولكى يثبت أن طريق السادات هو الطريق الصحيح .

وربما تساءل البعض : ما الذى كان يدعو عبد الناصر إلى أن يتعامل مع مجموعتين متنافرتين إلى هذا الحد ؟ (لاحظ أن مجموعة عبد الحكيم عامر قد تمت تصفيتها نهائيا بعد هزيمة ١٩٦٧) . وهذا سؤال يصعب الإجابة عليه ، إذ أن ما يبدو للوهلة الأولى ، ولأصحاب النوايا الطيبة ، هو أن التعامل مع مجموعتين متنافرتين يعطل وضع البرامج وتنفيذ السياسات التى كان يضعها عبد الناصر . وعلى سبيل المثال ، فإن الإجراءات الاشتراكية لن تستفيد من وجود أشخاص مثل السادات ومرعى وعثمان أحمد عثمان فى قلب النظام . ولا

جدال فى أن هؤلاء لم يقبلوا تلك الإجراءات إلا خوفا من عبد الناصر أو مسايرة له . وهكذا يظل السؤال قائما ، والرد الوحيد الذى أتصوره هو أن نظام الحكم كان ، بسبب عدم ديمقراطيته ، مرتكزا على القوة ، والقوة تحتاج دائما إلى توازنات . ومن المفيد ، من أجل استقرار النظام ، أن تكون هناك مجموعتان تنشغل كل منهما بالأخرى ، ويمكن ضرب إحداهما بالأخرى إذا ما تمادت فى ممارسة قوتها ... أما تأثير ذلك على مصر ، فعلمه عند الله !

ثم جاء السادات إلى الحكم ، وأصبحت الفرصة متاحة لجناحه لكى يبسط سلطته ونفوذه . وكان أول ما فعله هيكل هو أنه قام بدور رئيسى فى تأكيد أحقية السادات بخلافة عبد الناصر على أساس « الشرعية » . أى لأن عبد الناصر هو الذى اختاره نائبا . وهكذا يقول فى كتابه الأخير : « أدرنا الحملة الانتخابية للسادات فى الاستفتاء على رئاسة الجمهورية (وكان المشرف عليها هو هيكل شخصيا) على أساس أنه كان الرجل الذى اختاره جمال عبد الناصر لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته » .

هل ترى الخدعة أيها القارئ العزيز ؟ ألا تشعر بأن عقلك قد أهين عندما تقرأ هذا الكلام ؟ لقد أراد هيكل أن يقنعنا من قبل بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد صدفة ، ولم يكن مقدرا له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وكان يرجع فقط إلى أن السادات « عليه الدور » . وكان فى ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ولكنه انشغل ، ولم يكن بقاء السادات نائبا حتى موت عبد الناصر إلا ضربة حظ جعلت الرئيس « ينسى » هذا الموضوع . حسنا ، لنصدق هذا كله ، ولكن إذا صح أن هذا هو رأى هيكل فى الموضوع ، فكيف سمح لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كان اختيارا سليما ، وحقيقيا ، وتعبيرا عن رغبته الأصيلة والدائمة ؟ إن هيكل نفسه — تبعا لما قال — لم يكن مقتنعا بهذا

الاختيار العارض ، بل يبدو أنه ناقش عبد الناصر فيه ، فكيف يدير هيكل حملته على أساس أن الاختيار كان أصيلا ؟ إن المسألة لا تحتمل إلا أحد أمرين : فإما أن عبد الناصر كان قد اختار السادات لأنه كان مقتنعا به ، وعندئذ تكون قصة « الدور » و « النسيان » قصة ملفقة (ويكون عبد الناصر ذاته قد أعطى شعبه أسوأ « هدية » لمستقبل أيامه) . وإما أن عبد الناصر كان قد اختاره بصورة مؤقتة ، و لم يكن ينوى أن يحتفظ به إلى النهاية ، وفاجأه الموت قبل أن يعدل عن رأيه ، وعندئذ يكون هيكل قد أدار حملة السادات الانتخابية على أساس عملية غش كبرى موجهة ضد الجماهير البريئة الذاهبة إلى صناديق الاستفتاء .

إذن فقد أصبح السادات ، بفضل مؤازرة هيكل وتعاونه معه قلبا وقالبا ، رئيسا للجمهورية . ولكن الأمر لم يستتب له على الفور ، فقد كان هناك الجناح الآخر ، الذى لم يكن مقتنعا بالسادات إلا بوصفه رئيسا انتقاليا ، و لم يسكت عن ترشيحه إلا لكى يتم عبور تلك اللحظات الحرجة التى أعقبت وفاة جمال عبد الناصر بسلام . وهكذا بدأت الاختلافات والمناوشات والانقسامات ، وكان الخلاف محتدما على أشده بين الجناح الناصرى التنفيذى ، الذى كان أكثر عددا وأكثر رسوخا بكثير ، وبين الجناح الساداتى ، الذى كان يتمتع بميزة هامة ، هى كرسى رئاسة الجمهورية (وهو أمر له أهميته القصوى فى نظام حكم غير ديمقراطى) . وكذلك دهاء أقطابه وحنكتهم السياسية ، وعلى رأسهم هيكل .

المهم أن الصراع أسفر فى النهاية عن انتصار ساحق ، وشديد السهولة ، للجناح الساداتى على الجناح الآخر الذى كان ، رغم سيطرته على أهم مرافق الدولة ومعظم التنظيمات السياسية ، يدير دفة الصراع بقصور شديد . وبعد أن حسمت نتيجة الصراع لصالح السادات فيما عرف بحركة التصحيح

(وفيما بعد : ثورة التصحيح) فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، أى بعد ستة أشهر من اعتلاء السادات الحكم ، أصبح الطريق مأمونا ، وكتب هيكل مسجلا موقفه من هذا كله « بصراحة » . ومن المهم جدا أن نتابع هذا الذى كتبه هيكل فى تلك الفترة لعدة أسباب :

أولا : أن هذه الفترة تمثل منعطفا حاسما فى السياسة المصرية ، تحددت فيه بالتدريج معالم الخط المميز لحكم السادات فى السبعينات وأوائل الثمانينات .

ثانيا : أن كتابات هيكل ، بما تضمنته من حماسة شديدة للسادات ، تكشف عن العلاقة العضوية الوثيقة بين الرجلين ، وتؤكد أن هذه العلاقة كانت قائمة منذ عهد عبد الناصر ، وخرجت إلى العلن عندما تخلص السادات من منافسيه .

ثالثا : أن هذا التمجيد الذى أغدقه هيكل على السادات ، حدث فى وقت كان يعلم فيه من هو السادات ، وكان يعرف تاريخه الذى رواه فى « خريف الغضب » ، والذى كان يمتد على مدى ثلاثين عاما ، من أوائل الأربعينات حتى آواخر الستينات .

رابعا : أن هذه الكتابات تتحدث فى كثير من الأحيان عن وقائع رويت فيما بعد فى « خريف الغضب » ، ولكننا نجد الواقعة الواحدة تصطبغ بلونين مختلفين كل الاختلاف : ساطع براق فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ ،وأسود قاتم فى ١٩٨٣ . الفرق بين الاثنين ، بالطبع ، يكشف عن مستوى القيم الأخلاقية لدى أنصار مدرسة معينة فى الصحافة والسياسة ، لا تجد فى ارتداء الأقنعة وخلعها ، تبعا للعهود ووفقا للمصالح ، أى عيب أو نقيصة .

خامسا : أن هذه الكتابات تثير تساؤلا على جانب كبير من الأهمية ، هو : إلى أى مدى كان هيكل ناصريا ؟

● يصف هيكل ،فى أول مقال يكتبه بعد أحداث ١٥ مايو ، أيام الأزمة

فيقول : « لقد عشت لحظة التفجير ، ومن حسن الحظ أن التدمير لم يقع ، وتلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية فى لحظات بالغة الصعوبة والخطر » .

● « لقد كنت أول من دعاه الرئيس أنور السادات إلى بيته صباح الأربعاء ١٢ مايو ولم يستدعنى بالتليفون ، كما تعود أن يفعل ، ولكنه بعث إلى بكريمته تدق باب بيتى فى الصباح الباكر ... » (تأمل مدى التعاون والتفاهم بين الرجلين فى لحظة التحول) .

● يكتب هيكل على لسان السادات ، فى حملة الدعاية الهائلة التى شنها لدعم مركزه بعد الحركة : « إن لدى الشجاعة أن أقف أمام الملأ وأقول بأعلى صوت إننى لا أريد أن أكون رئيسا لهذا البلد وفق شروط يمليها من يدعون أنهم ولاة الأمر علىّ . إننى أعمل بضميرى ولن أعمل بإملاء أحد على . وأقوى سلاح أملكه فى يدى أننى لا أتمسك بأن أظل رئيسا » .

● « كان أنور السادات فى هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلا بأكثر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد . كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة ، مزيجا مدهشا من الهدوء والحسم » .

● « كانت لحظة حاسمة فى تاريخ مصر ... وكانت لحظة رائعة نبيلة »[1] .

● يتحدث هيكل عن انتصار ذلك الذى قال عنه فيما بعد أنه تولى الحكم بصدفة تاريخية غير مقصودة ، فيقول : « عشنا المحنة مرتين فى السنوات الأخيرة ، ولولا عناية الله مع جمال عبد الناصر مرة (يقصد أيام تمرد عبد الحكيم عامر بعد الهزيمة) ، وعناية الله مع أنور السادات مرة ثانية ـــ

---

(١) الاقتباسات كلها من مقال هيكل الأسبوعى « بصراحة » ، بعنوان ماذا أقول ؟ ـــ الأهرام ١٩٧١/٥/٢١ .

لسقطت مصر فى أعماق الظلام والخوف » .

● يصف هيكل الحوار الذى كان يدور بين السادات وخصومه فيقول : « كان أنور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين » .

● « كان أنور السادات يتصرف على سجيته .. سجية مصرى أصيل مفتوح القلب والعقل معا » .

● « حدثت المعجزة فى المرة الثانية التى استفقنا الآن من هولها بسبب أن مواطنا تحرك ضميره فذهب بأشرطته فى الليل إلى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه ، ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل فى موقع المسؤولية الأولى تصرف بجرأة نادرة فى لحظات خطر محيق »(١) .

● « قال الرئيس السادات بلهجته الودودة : محمد ... ودار بيننا نقاش طويل كان فيه الرئيس كريما وحليما كعادته »(٢) .

● « هذه المرحلة هى التى ستجعل من أنور السادات — بإذن الله — قائدا تاريخيا لشعبه وأمته ، لأن القيادة التاريخية مرتبة أعلى بكثير من الرئاسة مهما كان وصفها »(٣) .

● « لقد أثبت أنور السادات ذلك عمليا فى معركته ضد مراكز القوى . كان أمامها أعزل من أى سلاح ... وكانوا أمامه ومعهم كل أدوات السلطة فى مصر . وكنسهم من فوق الأرض كنسا لأن الجماهير كانت معه »(٤) .

---

(١) مقال : « السؤال الأول والأكبر » — الأهرام ١٩٧١/٥/٢٨ (وجميع الاقتباسات السابقة من نفس المقال) .

(٢) « كيسنجر وأنا » — ١٩٧٢/١٢/٢٩ .

(٣) « الخطوة الضرورية » — ١٩٧١/١١/٢٦ .

(٤) « علامات على طريق طويل » — ١٩٧٢/٢/١١ .

● ويصل الأمر بهيكل إلى حد أن يمتدح فى السادات نفس المظاهر التى هاجمه من أجلها فيما بعد فى « خريف الغضب » . فنشاط السادات السياسى فى شبابه ، الذى وصف فى « الخريف » بأنه عمالة للقصر ، وفقره العائلى الذى وصف بأنه سبب عقدته النفسية وعلة تكالبه على مظاهر الترف ، كان لهما وصف مختلف تماما فى عام ١٩٧٢ :

« كان أنور السادات أكثر ما يكون أمانة حين قال : إننى أفهم ما يعانيه الشباب ، وأنا الذى خرجت من طين مصر إلى التمرد ، وإلى السجن وإلى التشرد ، ثم إلى الثورة » . ويواصل هيكل كلامه قائلا : « يقول أنور السادات نفسه : كنت دائما من قاع السلم الاجتماعى فى مصر . من قلب الطين ، ولقد تعلمت بمعجزة ، وعندما أتممت تعليمى وجدت أن العمل الوطنى أهم بالنسبة لى من أى وظيفة مع حاجتى الشديدة إلى مرتبى ... وجدت نفسى فى السجن ، متهما بالتعاون مع الألمان ، وكان ذلك صحيحا ، ولكن تعاونى مع الألمان لم يكن من أجل هتلر وإنما من أجل مصر »[١] .

أما استراحة القناطر ، التى صارت فيما بعد ، مع غيرها من الاستراحات ، نموذجا للترف الذى يتمتع به السادات على حساب الشعب ، فقد قال عنها هيكل : « كنت على موعد مع الرئيس السادات فى استراحة القناطر التى يفضل الإقامة فيها كلما استطاع ، لأنها تجعله بقرب الريف الذى يعتبره مصر الأصيلة ومصر الحقيقية »[٢] .

إن هذه الاقتباسات تغنى عن كل تعليق . وحسبنا أن نقول إن الصفات المعنوية والأخلاقية للشخص الواحد لا يمكن أن تتغير فى مرحلة واحدة من

---

(١) « قضية هذا الجيل » — ١٩٧٢/١/٢٨ .

(٢) « على هامش التطورات الأخيرة » — ١٩٧٢/٧/٢٨ .

حياته . ولكننا عند هيكل نجد أنفسنا إزاء ساداتين ، لا سادات واحد : أحدهما كان بطلا عندما كان هيكل راضيا عنه وشريكا له ، والآخر كان منحرفا عندما حل « خريف الغضب » . ويظل السؤال الأهم ، بعد هذا كله ، هو : إذا كان لدينا « ساداتان » ، فكم هيكل هناك ؟

فى الحديث السابق كله كانت هناك إشارات كثيرة إلى الصراع بين جناحين فى ظل عبد الناصر ، والأمر اللافت للنظر هو أن كلا من الجناحين كان يؤكد أنه هو الذى يمثل تراث عبد الناصر على حقيقته . ولما كان هيكل قد انتمى ، بقلبه وقالبه ، إلى الجناح الساداتى فى تلك الفترة ، فقد كان من المحتم أن يؤكد ، فى كتاباته ، أن السادات وريث الناصرية الأصيلة ، وأنه هو الذى يعبر عن مبادئها خير تعبير .

فهو يقول عن حركة التصحيح : « إننا لسنا أمام بداية جديدة ، وإنما نحن على طريق الاستمرار ، وإلا وجدنا أنفسنا نقع فى شرك ينصبه أعداء الثورة السياسية والثورة الاجتماعية »[١] . ويكتب هيكل عن حوار دار بينه وبين السادات حول الناصرية فيقول : « قال أنور السادات بالأمانة كلها : إننى لا أرى طريقا آخر غير طريق عبد الناصر »[٢] . ويدافع هيكل عن ناصرية السادات الأصيلة فيقول : « عبد الناصر والناصرية لا يمكن رؤيتهما من خلال ثلاثة أو أربعة أساءوا إليه وإليها وإلى أنفسهم ، وإنما يرى وترى من خلال كثيرين أحسنوا .. أنور السادات وكان هو الذى اختاره واستخلفه من بعده ، ومع أنور السادات مئات من المعاونين والمساعدين يقودون العمل المصرى فى كل الميادين »[٣] . ويدعو شعب عبد الناصر إلى الوقوف وراء

---

(١) « ماذا أقول ؟ » — ١٩٧١/٥/٢١ .

(٢) « حديث عن تجربة » — ١٩٧٢/١/١٤ .

(٣) نفس المقال .

السادات فيقول : « إن قيادة أنور السادات ، على طريق جمال عبد الناصر ، هى الممثل الشرعى لحركة الثورة الوطنية والقومية فى المرحلة الراهنة . وظنى أن هذه القيادة وتأييدها إلى آخر المدى هو العاصم الحقيقى فى هذه الظروف من جاهلية اليمين المتخلف وجهل اليسار المغامر »[١] .

ولكن هيكل فى الوقت ذاته كان يمهد للتغيير . وعندما كتب فى نوفمبر ١٩٧٠ مقالا بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أثار ضجة كبرى لدى الفريق الآخر ، الذى كان يؤكد تمسكه بالناصرية كما وضع معالمها عبد الناصر نفسه . ولقد دار خلاف طويل بين الفريقين حول أسباب الصراع بينهما ، وهو خلاف لا يعنينا هنا أن ندخل فى تفاصيله أو نصدر حكما على طرفيه ، بل إن ما يعنينا هو أن هيكل ، الذى أعلن نفسه حاميا لتراث الناصرية ، كان فى تلك الفترة يقف من الناصرية موقفا يدعو إلى التساؤل عن طبيعة انتمائه إليها .

فهو قد حارب الجناح « المتطرف » ، إذا جاز هذا التعبير ، وساند الجناح المعتدل ، إذا جاز التعبير أيضا ، ثم عاد فى كتابه الأخير فهاجم الجناح المعتدل أيضا . وهكذا تظل الناصرية عنده هى ما يرتبط بشخص عبد الناصر فقط ، لا بأى تنظيم معين انبثق عنها .

وعندما حارب الجناح المتطرف ، هاجمه على أسس متعددة : فهو يصف أقطاب هذا الجناح بالجهل الشديد ، إلى حد أنه يدون فى أحد مقالاته محتويات شريط لجلسات تحضير أرواح حضرها هؤلاء الأقطاب ، مع أستاذ جامعى اتخذوه وسيطا ، وأخذوا فيها يسألون « الروح » عن أخطر الأمور المتعلقة بتخطيط حركتهم وتوقيتها[٢] ، وإذا صحت القصة (وأنا شخصيا غير

---

(١) « علامات على طريق طويل » — ١٩٧٢/٢/١١ .

(٢) « تحضير الأرواح » — ١٩٧١/٦/٤ .

مقتنع بها) فإنها تلقى ظلالا من الشك على العهد الناصرى كله ، الذى كان هؤلاء يشغلون فيه مراكز القوة الحقيقية . وبالطبع لا يرى هيكل ، كعادته ، أن ما يقوله عن هؤلاء هو قبل كل شيء طعن فى عبد الناصر ، الذى أسلم مقاليد بلده لأشخاص على هذا المستوى ، بل هو طعن فى هيكل بدوره ، الذى رضى بأن يكون فيلسوفا لعهد يضم فى داخله مثل هذه النوعيات .

أما تأييده للجناح المعتدل ، فكانت عواقبه وخيمة : إذ أن هذا الجناح هو الذى تولى ، فى السبعينات ، القضاء على كل المقومات الرئيسية للناصرية ، كما حددها هيكل نفسه : أعنى الحياد الإيجابى والاستقلال الوطنى والتصدى للإمبريالية والصهيونية والنمو المستقل فى ظل اقتصاد مخطط . أى أن نفس المجموعة التى اختار هيكل الوقوف فى صفها ، كانت هى التى تولت تصفية الناصرية ، حسب مفهومه لها .

وحين عاد هيكل بذاكرته إلى الناصرية بعد عبد الناصر ، وجد التنظيمات الناصرية مفككة وعاجزة عن العمل السرى أو العلنى . ومفتقرة إلى القيادات القادرة[١] . ولكن ناصريا معروفا هو « فريد عبد الكريم » يؤكد تماسك الناصرية وثبات مبادئها ، وينفى الفكرة القائلة أنها تقوم على شخصية الزعيم ، مع اعترافه بالدور الأساسى الذى تلعبه هذه الشخصية . أما « عبد الهادى ناصف » ، وهو بدوره ناصرى مخلص ، ومن النماذج النقية لهذا الاتجاه ، فقد كانت معاركه مع هيكل قديمة العهد ، منذ أن نشر هيكل مقال « تحية للرجال » الذى تضمن مبالغة شديدة فى تصوير صعوبة عبور قناة السويس ، ورد عليه « ناصف » بهجوم مضاد عنيف على اتجاهات هيكل التى

---

(١) انظر فصل « النزول إلى العمل السرى » فى « خريف الغضب » .

رأى فيها ابتعادا عن الناصرية ، وما زالت المعركة بين الاثنين قائمة[١] .

المهم فى الأمر أن كثيرا من الناصريين المتمسكين بمبادئهم يتشككون فى ناصرية هيكل ، لأسباب عدة :

فهو قد هاجم أهم رموز الناصرية بمجرد موت عبد الناصر ، بحيث يمكن أن يُنظر إلى هجوم هيكل عليهم بوصفه هجوما على شيء فى صميم الناصرية ذاتها .. وهو قد أبدى تأييدا لا شك فيه للتحولات الساداتية فى السياسة الداخلية والخارجية ، خلال الفترة الحاسمة التى سبقت حرب ١٩٧٣ ، وهى التحولات التى سنرى فيما بعد أنها تنطوى — من وجهة نظر معينة — على بذرة الاستسلام لإسرائيل وفتح الأبواب لأمريكا وتخريب الاقتصاد الوطنى باسم الانفتاح . والأهم من ذلك أنه كان من الدعائم الكبرى لحكم السادات ، فى الفترة الحرجة الأولى ، على الرغم من كل ما يعرفه عن الاختلاف الهائل بين السادات وعبد الناصر فى الشخصية والفكر والاتجاه .

وهكذا يتبرأ كثير من الناصريين المتمسكين بعقيدتهم من هيكل ، بل ويناصبونه العداء . وعندما يستعرض المرء تطور مواقف هيكل ، منذ بدء ارتباطه بعبد الناصر حتى اعتقاله القصير الأمد فى عهد السادات ، لا يملك إلا أن يتساءل : هل كان هناك أى أساس حقيقى لتلك العلاقة التى ارتبط فيها اسم هيكل بالناصرية ، باستثناء ولائه لشخص عبد الناصر — ذلك الولاء الذى كان فى الوقت ذاته المصدر الأول لشهرته ونفوذه ؟ سؤال أترك الإجابه عنه للناصريين أنفسهم . أما عن نفسى فإننى كلما صادفت حالة من تلك الحالات التى تسيء فيها كتابات هيكل إلى عبد الناصر أبلغ الإساءة ، دون قصد منه ، فإنى لا أملك إلا أن أدعو لعبد الناصر بأن يرحمه الله من أصدقائه ، أما أعداؤه فقد كان هو ذاته كفيلا بهم !

---

(١) انظر لعبد الهادى ناصف مقال : « من التفسير التآمرى إلى المحاكمة على الفكر والنية » — جريدة الأهالى — ١٩٨٢/١٢/٢٢ .

الفصل الثامن

الجـذور

ليغفر لى الأستاذ هيكل استعارتى عنوان هذه الحلقة من كتابه ، وربما كان عذرى أنه هو بدوره قد استعارها من كتاب « أليكس هيلى » المشهور ، وكان موفقا فى استعارتها ، لا لأن الحديث فيها كان يدور حول الأصول العائلية الأولى للسادات فحسب ، بل لأن هذه الأصول العائلية كانت ، فى حالة السادات ، مثلما كانت فى حالة بطل أليكس هيلى ، زنجية أفريقية ، كما يحرص هيكل على أن يؤكد .

ولكن الحديث عن هذه الأصول العائلية ، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم لونية ، ليس فى رأيى هو « الجذور » الحقيقية لمأساة حكم السادات ، بل إننى أود هنا أن أتحدث عن « جذور » من نوع آخر ، أهم وأعمق بكثير ، كانت تكمن فيها بذرة التطورات التالية لسياسة السادات ، وأسلوب معالجتـه للقضايا القومية والوطنية والداخلية . هذه « الجذور » التى حددت ، منذ سنوات حكمه الأولى ، اتجاهاته التالية كلها ، هى التى تستحق بالفعل أن تدرس بعمق .

يمثل عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ تحولا حاسما فى السياسة المصرية . كان عبد الناصر قد توفى فى العام السابق وترك أمورا كثيرة معلقة ، تحتمل السير فى أكثر من اتجاه ، وعلى رأسها مبادرة روجرز ، التى كان قد أعلن قبوله لها قبل وفاته بشهور قلائل ، والاستعداد العسكرى لمعركة العبور ، الذى كان قد بلغ فى

ذلك الحين درجة عالية من الإتقان . وعندما تولى السادات الحكم فى أكتوبر ١٩٧٠ ، كان من الطبيعى أن تظل النغمة السائدة ، لفترة ما ، هى السير على طريق عبد الناصر . فلم يكن من الممكن أن يسير الإعلام والدعاية للرئيس الجديد فى أى طريق مخالف ، لأن الإعلان عن استمرار النهج السابق هو أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف التى يختفى فيها رئيس قوى ذو شهرة واسعة وماض طويل ، ويحل محله خلف لا يزال ، إلى حد بعيد ، مجهولا ، ولا يزال الناس يشعرون بأن كرسى الحكم كبير عليه .

كانت فكرة « السير على درب عبد الناصر » هى إذن الوحيدة الممكنة فى تلك الفترة الأولى ، مهما كان الاتجاه الحقيقى الذى تسير فيه نوايا الرئيس الجديد وخططه . ولكن بعد حركة مايو ١٩٧١ ، التى تخلص فيها السادات بضربة واحدة من خصومه الذين شكلوا « جناحا آخر » مناوئا له ، طوال الشهور السبعة الأولى من حكمه ، بعد هذه الحركة أصبح للرئيس الجديد من حرية الحركة ما يسمح له بأن يبدأ تطبيق أفكاره الخاصة . ولكن الحكمة كانت تقتضى أن يسير كل شىء بتدرج شديد ، بحيث يبدو فى أول الأمر أن كل شىء سيظل على حاله ، ثم تطرح الأفكار الجديدة بصورة عابرة فى البداية ، لمجرد التمهيد ، وبعد ذلك يبدأ الإلحاح تدريجيا على هذه الأفكار الجديدة ، ومن الممكن أن تظل هذه معايشة للأفكار القديمة وقتا ما ، ولكن هذه الأخيرة تذبل شيئا فشيئا ، إلى أن يتبلور الاتجاه الجديد ، ويحتل الميدان وحده ، فى نهاية الأمر . كل شىء إذن ينبغى أن يتم ببطء ، وحذر ، وتدرج ، ولكن الهدف واضح ، ومحدد مقدما ، وهو تحويل الاتجاه السياسى فى مصر تحويلا جذريا . ولا بأس من الاستشهاد ، فى عملية التحويل هذه ، بعبد الناصر على الدوام ، وخاصة إذا كان ذلك على صورة حديث خاص أو أقوال أدلى بها لهذا الشخص أو ذاك ، ما دام الموتى لا يستطيعون التكذيب .

فالاستعانة بعبد الناصر فى عملية التحول ضد سياسة عبد الناصر ، هى أسلم الوسائل وأضمنها لتحقيق التغيير المطلوب بهدوء وسلاسة ، بحيث لا يشعر الناس به إلا بعد أن يكون قد تم .

فى هذا التحول المخطط ، المرسوم بذكاء وبراعة ، كان من الطبيعى أن يكون للجهاز الإعلامى ، الذى يتربع على قمته هيكل ، دور أساسى : إذ أن الإعلام هو الذى يهيئ عقول الناس للتغيير ، وهو الذى يمهد الطريق للسياسات المرسومة . ولو تتبع المرء خط السير الذى سلكته كتابات هيكل فى هذه الفترة لوجد المخطط المرسوم للتحول ينفذ فيها ببراعة هائلة ، وبتدرج بطىء ولكنه محدد الاتجاه ، ولتبين له أن عملية تهيئة الأذهان للتغيير قد ألقيت على عاتق هيكل ، الذى اضطلع بها بكفاءة عالية .

فما هو هذا التغيير الذى كان يراد فى السياسة المصرية ؟ كانت هذه السياسة ، فى السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ وموت عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ ، تتلخص فى الاعتماد المتزايد على المساعدة السوفيتية ، اقتصاديا وعسكريا بوجه خاص ، ولم يكن هناك مفر ، فى ظروف تلك الفترة ، من سلوك هذا السبيل . ذلك لأن أمريكا كانت ، قبل حرب ٦٧ وبعدها ، قد انحازت كلية لإسرائيل ، وكانت شحنات الأسلحة المرسلة إليها ، والتى زادتها قوة على قوتها الأصلية ، تستهدف منذ ذلك الحين أن تصبح إسرائيل متفوقة عسكريا على الدول العربية مجتمعة . وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على الطرف المضاد فى الصراع العالمى من أجل الحصول على أسلحة تعوض التفوق الإسرائيلى . وهكذا خلقت ظروف الفترة نفسها ، والهدف الذى حددته السياسة المصرية لنفسها فيها ، وهو إزالة آثار العدوان ، خلقت وضعا يحتم مواجهة السلاح الأمريكى المتدفق على إسرائيل بسلاح سوفيتى ، دون أن يعنى ذلك ، بأى حال ، انحياز مصر كليا أو جزئيا إلى المعسكر

الشيوعي . ولذا شاع عندئذ استخدام تعبير « الصداقة » في وصف العلاقات المصرية السوفيتية ، وتعبير « الاتحاد السوفيتي الصديق » ، وكان ذلك يقتضي في المقابل زيادة حدة اللهجة المعادية لأمريكا . ومع ذلك فإن السياسة الرسمية لم تغلق أبواب الاتصالات مع أمريكا ، بوصفها قوة عظمى ينبغي أن يعمل لها حساب ، وإن كان الأمل في ممارستها ضغطا على إسرائيل من أجل الانسحاب كان في هذه الفترة شبه مفقود . وفي السنة الأخيرة من حياة عبد الناصر ازداد الحضور السوفيتي في مصر ، للرد على الغارات الإسرائيلية التي كانت قد توغلت إلى أعماق البلاد . وعندما زار عبد الناصر موسكو سرا في يناير ١٩٧٠ ، كان هو نفسه الذي طلب حضور السوفيت للدفاع عن العمق المصري عن طريق الصواريخ المضادة للطائرات ، ووافق السوفيت بعد تردد ، وكان حضورهم هو الذي أوقف الغارات الإسرائيليلة على الأهداف المدنية في مصر ، ولولا ذلك لشهدت المدن المصرية تخريبا واسع النطاق .

كانت هناك إذن حاجة حيوية إلى وجود السوفيت وإلى الأسلحة السوفيتية ، يقابلها تصعيد متزايد اللهجة ضد الولايات المتحدة . وعندما اعتلى السادات الحكم ، كان من الطبيعي أن يواصل السير ، أول الأمر ، في هذا الطريق ، لا سيما وأن الوجود السوفيتي كان حتى ذلك الحين ضرورة حيوية لحماية الأهداف المدنية في مصر . ولكن السياسة المرسومة ، في المدى الطويل ، كانت هي التباعد التدريجي عن السوفيت ، وطرح فكرة إمكان التفاهم مع أمريكا ، ثم الدعوة إلى الكف عن معاداة أمريكا لأن من الممكن « تحييدها » في الصراع العربي الإسرائيلي . وبالتدريج تتهيأ العقول للنتيجة المطلوبة ، أعني إنهاء الوجود السوفيتي في مصر ، وهو المطلب الأساسي لأمريكا ، بحجة أنه يساعد على عملية « التحييد » هذه . وعندما يطمئن الأمريكيون إلى أنهم قد أصبحوا وحدهم في الساحة ، وهم وحدهم حلفاء

الطرفين المتنازعين ، العربى والإسرائيلى ، عندئذ يمكنهم أن يسيروا بهدوء وثقة فى طريق السيطرة الكاملة على المنطقة ، وتحقيق الصلح بين الطرفين اللذين أصبحا داخلين فى نطاق نفوذ أمريكا بلا منافس .

هذا هو المخطط الشيطانى الذى رسم لمصر ، وللمنطقة العربية بأسرها ، بمجرد تولى السادات الحكم . ولكن لنقل مرة أخرى إن التدرج الشديد كان جزءا أساسيا من نجاح الخطة . فليس من السهل أن تظل تقنع الناس ، سنوات طويلة ، بأن السوفيت أصدقاؤنا والأمريكان ألد أعدائنا ، ثم تنتقل بهم مرة واحدة إلى القول بأن السوفيت هم الشياطين والأمريكان يمكن أن يصبحوا أصدقاء ، أو يمكن على الأقل « تحييدهم » . ومن هنا كان من الضرورى تنفيذ أهداف هذا المخطط الطويل الأمد خطوة خطوة ، فتوضع الأسس أولا ، ثم تأتى الخطوات التالية واحدة إثر الأخرى . ولما كانت مرحلة الانتقال الأولى هى الأصعب دائما ، فقد كانت تحتاج إلى حذر وبراعة من نوع خاص .

وقبل أن نعرض المراحل التى مرت بها هذه الخطة ، دعونا نتأمل تقييم هيكل الأخير ، فى « خريف الغضب » وفى غيره من كتاباته القريبة العهد ، لما حدث فى هذه المرحلة .

إن هيكل يتحدث بطريقة يصفها بأنها « منصفة » عن دور السلاح السوفيتى فى هذه المرحلة ، فيقول : « فى الحقيقة ، وللإنصاف ، فإن الاتحاد السوفيتى لم يقصر فى معاملة مصر أثناء حرب أكتوبر أو بعدها مباشرة . ولا يمكن لأحد أن يتجاهل ــ بصرف النظر عما قيل ويقال ــ إن كل ما تحقق فى حرب أكتوبر تحقق بسلاح سوفيتى . وبعد حرب أكتوبر مباشرة فإن الاتحاد السوفيتى قدم لمصر ٢٥٠ دبابة من طراز « تى يو ٦٢ » هدية ... تعويضا لها عن خسائر الحرب ، كما أنه باع إليها فيما بعد ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢٣ المتطورة . ومع ذلك فقد كانت مكافآته هى استبعاده من مؤتمر جنيف

فى ديسمبر ١٩٧٣ ... وفى أبريل ١٩٧٤ كان السادات عنيفا فى هجومه على الاتحاد السوفيتى بأنه قصر فى التزامه بتعويض مصر عن كل خسائرها فى القتال ، دون أن يشرح الأساس الذى جعله يتصور أن هناك التزاما سوفيتيا بتعويض مصر عن خسائرها » . ثم يجرى هيكل مقارنة بين ما اشترته مصر من الاتحاد السوفيتى على مدى عشرين عاما (١٩٥٥/٧٥) وقيمته ٢٢٠٠ روبل ، دفعت منها ٥٠٠ مليون روبل وبقى عليها ١٧٠٠ مليون ، ودخلت بها مصر خمسة حروب : السويس واليمن وحرب ٦٧ وحرب الاستنـزاف وحرب أكتوبر . أما السلاح الأمريكى فكانت قيمته ٦٦٠٠ مليون دولار فى ست سنوات (٨١/٧٥) لم تدخل بها أى حرب جديدة .

ولنستمع إلى شهادة هيكل فى حديث قريب العهد عن أضرار التسلح عن طريق أمريكا : « لقد كانوا (يقصد المملكة العربية السعودية) قلقين جدا مما يسمونه الخطر الشيوعى فى المنطقة ، وكانوا يريدون إخراج السوفيت ... وصحيح أنهم مولوا بعد ذلك شراء أسلحة غربية ، ولكنى ممن يعتقدون أن الأسلحة الغربية لا تستطيع أن تدافع ضد إسرائيل . إنها تصلح لعمليات فى الكونغو أو السودان أو الصومال ، أما إسرائيل فإنها ستتلقى أمام كل قطعة سلاح أمريكية يحصل عليها الغرب ، ما يوازيها ، بل ما يتفوق عليها ويلاشيها »[(١)] .

هكذا يتحدث هيكل الآن ، وحديثه الحالى يعبر ، بلا شك ، عن اتجاه وطنى واضح . ومن المهم جدا أن نتذكر تفاصيل كلماته هذه ، لأننا سنعود الآن إلى الوراء ونستعرض بعض الفصول القديمة ، والهامة ، لقصة علاقات مصر مع المعسكرين الكبيرين ، واتجاهات سياسة التسلح ، كما يرويها هيكل بنفسه فى فترة التحول التى تحدثنا عنها منذ قليل . وكم أود أن يتنبه القارئ إلى

---

(١) حديث هيكل مع صلاح عيسى ـــ جريدة الأهالى ١٩٨٣/٤/٢٧ .

آراء هيكل فى هذه الفترة الحاسمة ، إذ أن أمورا عظيمة الأهمية كانت تتقرر عندئذ ، وبذور الشجرة التى « أثمرت » فى زيارة ١٩٧٧ ومعاهدة ١٩٧٩ وتحالف حكومة مصر مع أمريكا من أجل خدمة الأهداف الأمريكية فى مختلف مناطق العالم الثالث — هذه البذور كانت تغرس فى تلك الفترة التى سنتحدث عنها ، ببطء ، وذكاء ، وتدرج ، ولكن مع إدراك واضح للهدف البعيد . وسوف أكتفى فى معظم الأحيان باقتباسات مباشرة مما كان يكتبه هيكل فى ذلك الحين ، مع تعليقات هنا وهناك للكشف عن تسلسل التفكير وتغير اتجاهه ، وفى ظنى أن أقوال هيكل وحدها تغنى عن كل تعليق ، وأن القراءة الذكية لها تكشف للقارئ عن كل شيء .

فلنبدأ بما كان يقوله هيكل فى عام ١٩٧٠ ، وقد اخترت هذا العام لأنه آخر الأعوام التى كان هيكل يكتب فيها خلال حكم عبد الناصر ، أى أنه كان هنا يعرض آراءه السياسية فى الوقت الذى كانت فيه سياسة الدولة الرسمية تؤيد بقوة التسلح من الاتحاد السوفيتى ، وتعتبر الصداقة المصرية السوفييتية عاملا أساسيا فى صمود مصر وتمكينها فيما بعد من إزالة آثار العدوان ، بينما تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها العدو الرئيسى الذى كان أكبر عوامل هزيمتنا فى حرب ١٩٦٧ . فكيف كان هيكل يكتب فى هذه الفترة ؟

● « ما زالت هناك بين قوى القومية العربية عناصر تنسى إسرائيل لكى تغرق نفسها فى حرب مقدسة مع الشيوعية ، بينما الدول الشيوعية هى التى وضعت سلاحها فى يد العرب ولولاه لما كان هناك أمامهم بديل عن الاستسلام »[١] .

● « منذ يونيو ١٩٦٧ ... فإن دور الاتحاد السوفييتى وأثر هذا الدور

---

(١) مقال : « إلى متى الضباب ؟ » الأهرام ١٩٧٠/١/١٦ .

هو الذى ساعد الأمة العربية على تحقيق إرادتها بالصمود ضد الأمر الواقع الذى حاول تحالف الاستعمار والصهيونية فرضه عليها عسكريا » .

● « المناورة الأمريكية واضحة أمام أى عربى . فهى تريد عزل العرب عن الاتحاد السوفيتى لا لكى يخرج الصراع العربى الإسرائيلى من نطاق الحرب الباردة بين القوى الكبرى ... ولكن لكى يبقى الطرف العربى تحت رحمة الأمر الواقع الذى يفرضه السلاح الأمريكى الذى تمسك به إسرائيل » .

● «الاتحاد السوفيتى له دور فى الشرق الأوسط بحكم صداقته للعرب، وهو دور أوجده العرب بأنفسهم قبل أن يوجده الاتحاد السوفيتى لنفسه ــ ردا على الولايات المتحدة وارتباطها بإسرائيل »[١] .

● « دور الاتحاد السوفييتى الكبير والخطير ليس فقط فى إعادة تسليح الجيش المصرى ولكن أيضا فى إرسال المئات من خبرائه للمشاركة فى إعداد الجيش المصرى للقتال على مستوى الحرب الحديثة . وهو بهذا يسجل سابقة جديدة فى التاريخ ، لأن الاتحاد السوفييتى بهذه السابقة كان أول بلد أوروبى يبعث بالعسكريين من أبنائه إلى أرض آسيوية وأفريقية ، لا لكى يسيطروا ويستعمروا .. ولكن لكى يساعدوا هذه الأرض ... على محاربة السيطرة والاستعمار » .

« لماذا يتخذ الاتحاد السوفييتى هذا الموقف المؤيد لنا ؟ الرد : أن الأمر بالنسبة للاتحاد السوفييتى مسألة مبدأ ، وهو عداء الاستعمار »[٢] .

أما عن أمريكا فيقول هيكل فى هذه الفترة نفسها :

● « إن الولايات المتحدة صرحت لإسرائيل باستخدام طائرات الفانتوم

---

(١) الاقتباسات الثلاثة السابقة من مقال « أزمة الشرق الأوسط » ١٩٧٠/٣/٢٠ .

(٢) « ما هو الاختلاف والخلاف ؟ » ١٩٧٠/٨/١٤ .

فى غارات بالعمق ضد الأراضى المصرية ، و لم تكن إسرائيل تستطيع أن تفعل ذلك إلا بتصريح أمريكى واضح »[١] .

● « إن العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة وصلت الآن إلى الحد الذى لم تعد فيه السياسة الأمريكية قادرة على أن تظهر أو تمارس أى قدر من الاستقلال عن الإرادة الإسرائيلية »[٢] .

● ويشير إلى موقف أمريكا فيصفه بأنه « التعهد باستمرار تفوق إسرائيل فى قوة النيران على كل ما لدى العرب مجتمعين من قوة النيران »[٣] .

● « إن السياسة الأمريكية الممعنة فى عدائها للعرب ، والممعنة فى تحيزها لإسرائيل ، استمرت على مدى عهدين (جونسون ونيكسون) من سنة ١٩٦٧ حتى الآن ... ومعنى ذلك أن هناك تخطيطا أعلى من أن تغيره اختلافات العهود أو الأحزاب أو الرئاسات » . ثم يقتبس هيكل فى المقال نفسه أقوالا ويشير إلى أحداث تحيزت فيها أمريكا ضد العرب بوضوح ، ويعلق على ذلك قائلا إن هذه الوقائع « تستطيع أن ترد على دعوى السياسة الأمريكية المتوازنة »[٤] .

● ويحدد هيكل أهداف أمريكا فى المنطقة فيقول فى نص هام « ماذا تريد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط ؟ » ..

« **أولا** : إخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة ، مع تجنب المواجهة

---

(١) « المائة يوم القادمة » — ١٩٧٠/٢/١٣ . ويلاحظ أن « المانشيت » الرئيسى لهذا العدد كان حول غارة إسرائيل على مصنع « أبو زعبل » ، حيث قتل وجرح عدد كبير من العمال ، وكان العنوان « الجريمة الإسرائيلية الأمريكية » .

(٢) « السياسة الأمريكية والإرادة الإسرائيلية » — ١٩٧٠/٢/٢٠ .

(٣) « المسدس .. وفى يد من هو ؟ » — ١٩٧٠/٣/٦ .

(٤) « رسائل على الطبول الأفريقية » — ١٩٧٠/٣/١٣ .

المباشرة معه فى نفس الوقت » .

« **ثانيا** : الاحتفاظ بإسرائيل قوية فى الشرق الأوسط ، قادرة على القيام بدور حارس المصالح الأمريكية فى المنطقة » .

« **ثالثا** : إبقاء العالم العربى فى حالة من الضعف يسهل معها على الولايات المتحدة تأمين مصالحها » .

« **رابعا** : تحديد دور مصر فى المنطقة ، أو بعبارة أوضح حصار دور مصر » ..

« **هذا هو مجمل مطالب الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأوسط** ... فى عالم السبعينات » .

ثم يذكر هيكل القراء بعبارة قالها كيسنجر : « إننا يجب أن نطرد expel الاتحاد السوفييتى من منطقة الشرق الأوسط بكل الطرق والوسائل » ويعلق عليها بقوله : « ومن المهم لنا جدا أن نتذكر ذلك ، وأن لا يغيب عنا معناه »[١] .

هذا ما كان يقوله عن السوفييت وأمريكا فى الأشهر الأخيرة من حياة عبد الناصر ، ومن المهم أن نؤكد المعانى الرئيسية التى كان يدعو إليها عندئذ : لا غناء لنا عن الاتحاد السوفييتى فى التسلح ـــ صداقة السوفييت مسألة مبدأ ، لا مسألة مصالح ـــ العرب ، ومصر بالذات ، هم الذين طلبوا التواجد السوفيتى ، الذى لم يفدهم فى التسليح فقط ، بل فى التنمية أيضا ـــ أمريكا تحرص على بقاء إسرائيل أقوى من العرب أجمعين ـــ الإرادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الإسرائيلية ـــ عداء أمريكا للعرب هدف دائم ، يتجاوز العهود والرئاسات ـــ سياسة التوازن بين العرب وإسرائيل

---

(١) « أمريكا .. نظرتها إلى الأزمة وأسلوبها » ـــ ١٩٧٠/٩/١١ .

هى ، فى نظر أمريكا ، خرافة — أول أهداف أمريكا هو إخراج السوفييت من المنطقة ، ثم تقوية إسرائيل وإضعاف العرب ، ثم حصار مصر وعزلها عن العرب ، وهذه الأهداف ليست مرحلية بل هى أهداف السبعينات كلها .

فلنتأمل بعد ذلك ما قاله هيكل فى السنتين الأوليين من عهد السادات : ولنتذكر ما قلناه من قبل ، من أن الخطة — خطة التحول الحاسم — ينبغى أن تكون شديدة التدرج : فهناك شعب مهيأ ذهنيا لأفكار كتلك التى لخصناها من قبل ، وهناك تسلح لا يمكن الاستغناء عنه بين يوم وليلة ، وهناك اقتصاد كان لا يزال مرتبطا بالمساعدات السوفييتية إلى حد بعيد . لذلك كان من الطبيعى ألا تنكشف الأوراق مرة واحدة . فبعد حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ مباشرة ، كان المطلوب هو تفنيد حجة الجناح الذى كان معاديا للسادات ، والذى عبر عنه الفريق فوزى بقوله إن السادات « يبيع البلد للأمريكان » . ولذلك كان من الضرورى الاستمرار فى الضرب على النغمة السابقة ، النغمة الناصرية ، بعض الوقت ، لا سيما وأن السوفييت بدأوا ينزعجون .. وهكذا كتب هيكل يقول : « أقول بأمانة وصراحة أنه لولا الاتحاد السوفيتى لما كان أمامنا خيار غير القبول بشروط المنتصرين كما حدث سنة ١٩٤٨ . وقيمة الصداقة العربية السوفييتية أنها ليست صداقة ظروف ، أى أنها ليست صداقة تكتيكية ، وإنما هى — كما كان يقول جمال عبد الناصر — صداقة نضال ضمن الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، ونضال من أجل الحرية والتقدم .. وإنصافا للاتحاد السوفيتى فإن تعامله مع جمال عبد الناصر ومع أنور السادات بعده كان تعامل الشرفاء . ومن الحق أن يقال إنه لا يمكن أن يكون هناك مصرى يحترم مصريته أو عربى يحترم عروبته إلا ووجد نفسه صديقا للاتحاد السوفييتى »[1] .

---

(١) « ماذا أقول » — ١٩٧١/٥/٢١ .

الرسالة التى يريد هيكل أن ينقلها إلى السوفييت هنا هى : اطمئنوا ... لقد قضينا على أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أنصاركم ، ولكننا ما زلنا أصدقاء بقوة .

ولكن مخاوف السوفييت أخذت تزداد بعد الدور الأساسى الذى لعبته القوات المصرية فى إحباط انقلاب هاشم عطا (اليسارى) فى السودان ، ولذلك يحاول هيكل طمأنة مخاوفهم (لأن الوقت لا يزال مبكرا للتخلص منهم) . فيبدأ مقاله بقوله : « لا يمكن لأحد أن يتهمنى بممالأة الاتحاد السوفيتى ، بل إن عناصر من داخل الاتحاد السوفيتى أو موالية له بالفعل أو بالادعاء رمتنى مرات بممالأة أمريكا لأننى طالبت بعدم التصادم والتناطح معها بالقوة » « كان همس عناصر السلطة (يقصد الجناح الناصرى الآخر) ولأهداف صراعهم من أجلنا أن أنور السادات قد عقد صفقة لحل الأزمة من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى ... حتى توحى للاتحاد السوفييتى بأن أنور السادات يستعمله كورقة فى لعبة وليس صديقا فى نضال »[1] .

ورغم محاولة الترضية الواضحة ، فإن هذا الاقتباس يهمنا فى أمرين :

الأول هو وجود تلميح إلى موقف جديد من أمريكا تعرض هيكل بسببه للوم من بعض الجهات ، وإن كان هيكل لا يزال يؤكد ، حتى ذلك الحين ، أن كل شيء على ما هو عليه .

والثانى هو وصف هيكل للسادات فى عام ١٩٧١ بأنه صديق للسوفييت فى النضال — نفس السادات الذى عرض علينا هيكل فى « خريف الغضب » تفاصيل عن ماضيه مع أجهزة المخابرات المختلفة المتصلة بالأمريكيين اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

---

(١) « مرة أخرى : العلاقات العربية السوفييتية » — ١٩٧١/٨/٢٧ .

ثم تزداد التلميحات وضوحا بالتدريج ، مع الاحتفاظ بالموقف القديم (مؤقتا) . فهو فى هذه المرحلة لا يزال يؤكد أن « الهدف الأكبر الذى تسعى إليه إسرائيل والولايات المتحدة هو إخراج العامل السوفيتى كله تـأثيرا وتواجدا فى أزمة الشرق الأوسط ، لأن هذا العامل هو أهم القوى الضاغطة ، وإذا لم ندرك ذلك ، وإذا لم نعمل على مواجهته — إذن فنحن نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة»[١] . ومع ذلك فإن فى المقال نفسه إشارات واضحة إلى أن من الممكن أن يتوقف إمداد أمريكا لإسرائيل بالسلاح ، لو أن العرب لعبوا لعبة التوازنات والحسابات ، والعقبة الرئيسية فى وجه هذه الخطوة ، من وجهة نظر أمريكا ، هى التواجد السوفييتى . وهكذا ننتقل إلى موقـف جديد ، فبعد أن كان الموقف السابق هو : لا أمل من أمريكا ، أصبح الآن : هناك أمل ، بشرط أن نعرف قواعد اللعبة .

وفى الوقت ذاته كانت فكرة « تحييد أمريكا » قد بدأت تظهر فى كتابات هيكل منذ أوائل عام ١٩٧١ ، أى بعد حوالى أربعة أشهر من تولى السادات السلطة . فهو يتحدث — فى فبراير من هذا العام — عن ضرورة الاقتداء بإسرائيل فى تحقيق أهدافها خطوة خطوة ، بحيث يكون هدفنا الحالى هو إزالة آثار العدوان ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ومن المحتمل أيضا ، وبجهـد متواصل وعاقل ، أن الولايات المتحدة يمكن تحييدها بشكل ما ولو جزئيا أثناء تحقيقه ، وإن كان ذلك متداخلا فى أوضاع وظروف قد تقتضى شرحا أوسع »[٢] . وفى المقال التالى يزيد فكرته إيضاحا فيقول : « إذا ما أردنا أن نصل بنتيجة ما حدث سنة ١٩٦٧ إلى نجاح يماثل نجاحنا سنة ١٩٥٦ فإننا

---

(١) شهور مضت . وشهور قادمة » — ١٩٧١/٦/٢٥ .

(٢) « عن الاقتناع بإمكانية تحقيق هدف » — ١٩٧١/٢/٢٦ .

يجب أن نحصل على عنصرين : أولهما تأييد إحدى القوتين العظميين ، وذلك متاح لنا بتعاطف وصداقة وتأييد الاتحاد السوفيتي . والثانى تحييد القوى العظمى الأخرى ، وهى الولايات المتحدة ، أو على الأقل منع تدخلها ضد مصلحتنا فى الأزمة ، وغير ذلك مستحيل »[١] . ثم يأتى بعد ذلك كلام أخطر : « من هنا فلقد كنت ، وما زلت ، أختلف مع النغمة التى تقول إن الذى نواجهه أمامنا فى ميدان القتال هو الولايات المتحدة وليس إسرائيل (لاحظ أنه كان يقول بعكس ذلك تماما منذ عام) . والصحيح أن بيننا وبين الولايات المتحدة مواجهة سياسية ، أو صراعا سياسيا ، وهدف هذا الصراع هو الفصل بين إسرائيل والولايات المتحدة كحد أقصى ، أو تحييد الموقف الأمريكى تجاه إسرائيل كحد أدنى ، وذلك عن طريق توجيه ضغط دولى وعربى ومصرى ضد الولايات المتحدة ... هذا الضغط ... يقنع الولايات المتحدة .. بأنها تواجه تقلصا مخيفا فى هيبتها كقوى عظمى ، والهيبة على رءوس الدول العظمى كالتيجان القديمة على رءوس القياصرة » . وبعد قليل يحدد الهدف من صراعنا مع الولايات المتحدة ، بأنه « ليس هزيمتها فى ميدان القتال ، وإنما إخراجها ، وبكل وسيلة ، من ميدان القتال » . « وأقول إننى أستطيع أن أجد طريقا يقدر به الشعب المصرى أن يحارب إسرائيل ويهزمها .. ولكن ذلك يتطلب أن تكون الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان القتال » .

إن تصعيد لهجة « تحييد أمريكا » كان يزداد طوال عام ١٩٧١ ، وكانت المغالطة التى ارتكبها هيكل مزدوجة : فبعد أن كان أيام عبد الناصر يربط بين أمريكا وإسرائيل بحيث يستحيل فصلهما ، وبعد أن كان يؤكد أن هدف أمريكا الدائم والاستراتيجي هو إضعاف العرب من أجل هدمهم ، أصبح

---

(١) « التضاريس فى الطبيعة وفى السياسة » — ١٩٧١/٣/٥ .

الآن يقدم إلى القارئ ، فى جرعات خفيفة أول الأمر ، ثم تزداد كميتها بالتدريج — فكرة إمكان تحييد أمريكا وإيقاف فاعليتها فى مؤازرة إسرائيل ، بل ويرى أن الحرب بدون ذلك مستحيلة . ولكن إذا أدركنا مدى استراتيجية التحالف بين أمريكا وإسرائيل ، وإذا أدركنا أن أمريكا لا بد أن تعمل ما من شأنه منع العرب ، بشتى الطرق ، من أن يكتسبوا القدرة اللازمة لممارسة الضغط عليها ، لوجدنا إلى أى حد تؤدى « وصفة » هيكل الجديدة « لهزيمة » إسرائيل إلى طريق مسدود .

وإلى هذه الفترة ينتمى مقال « تحية للرجال » المشهور (١٢ مارس ١٩٧١) الذى بالغ فيه هيكل ، وكأنه جنرال خبير فى ميدان التقال ، فى وصف الصعوبات المميتة التى سيصادفها الجيش المصرى لو حاول عبور قناة السويس التى هى أخطر مانع مائى فى العالم ، وتحدث عن القوة الهائلة للجيش والطيران الإسرائيليين ، وكيف إن العبور يجعل جيشنا « يواجه ما لم يواجهه من قبل » . و لم تكن عملية التخويف هذه إلا جزءا من السياسة الجديدة ، فلم يكن من المستغرب إذن أن يثور عليه أنصار السياسة الناصرية السابقة ثورة عارمة .

ولنختتم هذا العرض لفكرة التحييد بعبارات تظهر فيها اتجاهات هيكل الجديدة ، التى استدارت بزاوية ١٨٠ درجة عن اتجاهاته منذ عام واحد ، بوضوح كامل : « إذا كانت إسرائيل قد انتصرت على العرب فى معارك بفعل التأييد الأمريكى فإن هذا التأييد الأمريكى ليس دائما ،وإنما الدائم هو المصالح الأمريكية فقط .. ومن هنا فإن التأييد الأمريكى ليس سلاحا أبديا فى يد إسرائيل . وهذه عبرة الأيام »[١] .

وفى العام التالى حدثت الخطوة الحاسمة ، التى ظهرت فيها معالم السياسة

---

(١) « العام الحاسم ومركز السادات » — ١٩٧١/١١/٧ .

الجديدة بلا مواربة ، والتى تعد الكتابات السابقة تمهيدا متدرجا لها ، وأعنى بها طرد الخبراء السوفييت من مصر فى يوليو ١٩٧٢ . هنا نود أن نذكر القارئ بالاقتباسات التى تعمدنا أن نكررها من قبل ، والتى تبين أن هيكل كان واعيا تماما بأن طرد الخبراء السوفييت هو هدف السياسة الأمريكية فى المنطقة وبأننا إذا لم نواجه ذلك فكأننا « نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة » . ولكنه ، فى ظل السياسة الجديدة ، لا يجد أية غضاضة فى أن يحمل طبق الفضة بيديه ، ويبتلع كلماته ومواقفه السابقة بسهولة تامة ، ويساعد « العدو » على تحقيق مطلبه بكل ما يملك من قدرة وموهبة . فحين خرج السوفيت بالفعل ، لم يقل لنا هيكل كلمة واحدة عن تأثير ذلك على الولايات المتحدة إيجابيا ، ولم تصدر عنه كلمة واحدة يقول فيها إننا كنا نستطيع استثمار هذا الطرد لصالحنا ، كما أصبح يقول فى أيامنا هذه ، ولم يوجه كلمة نقد واحدة ، بل إنه ، على العكس من ذلك ، اخترع قصة اعتقاد الاتحاد السوفيتى بوجود فراغ عقائدى فى المنطقة ، واستعرض ، بلا مناسبة ، ولمجرد التحرش بالخصوم الجدد وتبرير سياسة السادات الجديدة ، تاريخ الخلافات العقائدية مع السوفيت منذ الستينات ، وكلها أمور حشرت حشرا بصورة ملفقة ، إذ أن هذه الخلافات لم تمنعه ، أيام عبد الناصر ، من امتداح السوفيت المبالغ فيه . والأخطر من ذلك أن هيكل يذيع سرا (يؤكد أنه لم يكن سرا ، وإن كان معظم الناس لم يعرفوه إلا عن طريقه) هو أن خمس طائرات سوفيتية كانت قد سقطت فى يوم واحد ، هو ١٨ أبريل ١٩٧٠ [١] . وكان الهدف من هذا الإعلان ، الذى بلغ قمة التنكر لتلك « الأفضال » التى كان يسبح بحمدها من قبل ، هو التشكيك فى قدرة الطيارين السوفيت ، ولا مانع لديه

---

(١) « الحوار المطلوب والضرورى » — ١٩٧٢/٨/١١ .

من تحطيم معنويات جيشه وأبناء وطنه عن طريق إعلان تفوق إسرائيل إلى هذا الحد حتى على السوفييت .

ويكمل هيكل حملته على السوفييت ، الذين كان يتغزل فيهم قبل أقل من عامين ، والذين يدعونا إلى الندم على فقداننا لصداقتهم فى أيامنا هذه ، فينشر وثيقة « سرية » (لا أدرى من أين حصل عليها ، وأتمنى أن يثبت لنا فى هذه الأيام إن كانت صحيحة أم ملفقة) هى تقرير لجنة داخل الحزب الشيوعى السوفيتى عن برنامج الحزب الشيوعى السورى ، وفى التقرير تشكيك فى القومية العربية وإمكانية الحل العسكرى أو قيام الدولة الفلسطينية . ولا ينسى هيكل أن يقلل من قيمة السلاح السوفيتى ، مؤكدا أنه « كان متأخرا عن الولايات المتحدة فى هذا المضمار سبع سنوات »[١] .

ومن اللافت للنظر أن هيكل قد استخدم ، فى هذه الحملة على السوفيت ، نغمة أصبح السادات فيما بعد يستخدمها على أوسع نطاق لإثارة مشاعر الشعب المصرى ضد بقية الشعوب العربية عندما حدثت المقاطعة بعد زيارة القدس ، وأعنى بها نغمة « مصر أولا » . فخروج السوفيت « حرك نبض الوطنية المصرية .. ووضعها فى موضع الاعتماد على النفس »[٢] .

نفس خروج السوفيت الذى كان منذ قليل يوصف بأنه مطلب العدو ، وهدف السياسة الأمريكية الأول .. وهو فى موضع آخر يتحدث عن خطأ السوفيت لأنهم « لم يدركوا قيمة مصر الحضارية ، ولم يدركوا أن مصر هى مصر ، وسوف تبقى دائما مصر »[٣] .

---

(١) « فى موسكو أيضا : وقفة موضوعية مع صديق » ــ ١٩٧٢/٨/١٨ .

(٢) انظر الهامش رقم (٢) صفحة ١٠٨ .

(٣) انظر الهامش رقم (١) .

كان التحول قد اكتمل وكانت الحلقة قد أغلقت بإحكام ، وتحول الصديق الذى وصف قبل ذلك بأنه تعامل مع عبد الناصر والسادات معاملة الشرفاء ، والذى « لا يوجد مصرى يحترم مصريته ، ولا عربى يحترم عروبته إلا وكان صديقا له » — تحول إلى عدو لحضارة مصر ، وأصبح خروجه علامة على الوطنية ..

وعندما وصل هيكل فى كتابته إلى هذه المرحلة ، استأذن القارئ ليأخذ إجازة لمدة شهر من الكتابة(١) ..

كان مدركا أنه أكمل مهمته ، وذهب ليستريح .

والآن ، دعونا نلق نظرة هادئة على تلك الكلمة ذات المظهر البرىء ، التى كانت الخطة المتدرجة ، الشديدة الحذر والذكاء ، تستهدف إقناع الأذهان بها ، وأعنى بها كلمة « تحييد أمريكا » . هذه الكلمة تلخص هدف السياسة الجديدة كلها : فبينما كان هيكل يؤكد ، فى ظل سياسة عبد الناصر ، أن أمريكا لا تقل عداء لنا عن إسرائيل ، وأن مصالحهما مرتبطة ارتباطا عضويا يستحيل تفكيكه ، وأن الأمور وصلت إلى حد أن الإرادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الإسرائيلية ، وأن دفاع أمريكا عن إسرائيل وسعيها إلى إضعاف الدول العربية إنما هو سياسة دائمة وليس على الإطلاق وضعا مؤقتا — بينما كان هيكل يؤكد ذلك كله ، أصبح فى عام ١٩٧٢ يركز جهوده على طرح هذا المفهوم الجديد ، الذى يتناقض كلية مع المفاهيم السابقة ، وأعنى به مفهوم « التحييد » ، ويعنى به كف يد أمريكا عن التدخل لصالح إسرائيل ضد العرب . فلنحلل إذن هذا المفهوم ، ونستخلص نتائجه .

---

(١) فى مقال ١٨ أغسطس ١٩٧٢ .

إن لعملية التحييد هذه وسيلتين :

الأولى : هى تنمية القوة الذاتية العربية ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، إلى الحد الذى تضطر فيه أمريكا إلى أن تعمل حسابا لقوتنا ، وخاصة حين تصل هذه القوة إلى حد تهديد المصالح الأمريكية فى المنطقة . فكيف تتحقق لنا مثل هذه القوة ؟ من الواضح أنها ، لكى تصل إلى الحد الذى تشكل فيه تهديدا حقيقيا ، وليس مجرد تهديد مظهرى أو مؤقت ، لمصالح أمريكا ، تحتاج إلى تغيير شامل فى نمط الحياة فى العالم العربى وفى أساليب حكمه . ولو وصلنا بالفعل إلى هذا التغيير ، فلن نكون عندئذ بحاجة إلى تحييد أمريكا ، لأننا عندئذ نستطيع أن ننتزع حقوقنا بأيدينا ، شاءت أمريكا أم أبت . وأبلغ دليل على ضخامة حجم التغيير ، السياسى والاقتصادى والعسكرى ، المطلوب تحقيقه فى مجتمعاتنا من أجل الوصول إلى تحييد أمريكا ، أن هذا التحييد لم يتحقق حتى عندما وصل التضامن العربى ، عسكريا واقتصاديا ، إلى مستوى عال لم يبلغه فى أى وقت من قبل ، فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . فقد زادت أمريكا من مساعداتها لإسرائيل أثناء الحرب ، وقدمت إليها أضخم جسر جوى من معدات القتال عرفه التاريخ ، مما أتاح لها قلب ميزان الحرب جزئيا لصالحها . وإذن فطريق القوة الذاتية العربية المطلوب من أجل التحييد طويل جدا ، ولو بلغناه يوما ما لما أصبح للتحييد عندئذ أى داع .

أما الطريق الآخر ، فهو الطريق العكسى ، أعنى طريق الإذعان لمطالب أمريكا وتقديم الخدمات والتسهيلات لها ، وتحقيق مصالحها فى المنطقة إلى الحد الذى يأمل أصحاب هذا الطريق أن يؤدى إلى تخفيف انحيازها لإسرائيل ، ما دام هناك أصدقاء جدد يؤدون وظيفة إسرائيل التقليدية ، وهى حماية المصالح الأمريكية . هذا الطريق إذن لا يكمن فى تهديد مصالح أمريكا ، بل فى التنافس مع إسرائيل على حماية هذه المصالح . ونظرا إلى أن الطريق

السابق طويل وشاق ، ويفترض شروطا يحتاج تحققها إلى ثورة كاملة لو حدثت لما عدنا نحتاج إلى هذا التحييد ، فإن نوع التحييد الذى يمكن تنفيذه عمليا ، فى ظروف العالم العربى الراهنة ، هو النوع الثانى ، أعنى التحييد الاستسلامى . ولهذا التحييد دائما ثمن فادح . فما الذى يدفع أمريكا إلى الامتناع عن مساندة إسرائيل أو التخفيف من انحيازها لها ؟ إن إسرائيل حليف قوى ، يحقق لها مصالح ضخمة : ردع قوى التحرر فى العالم العربى ، ضمان تدفق النفط للغرب ، صد « الخطر الشيوعى » . وعلى ذلك فالمطلوب منا أن نقوم نحن بأداء هذه الخدمات كلها لأمريكا ، حتى تدرك أن مصالحها لا تتحقق على يد إسرائيل وحدها ، لا سيما وأن لدينا مزايا خاصة ، هى اتساع الرقعة جغرافيا ، واستراتيجية الموقع ، والموارد البشرية والمادية الكبيرة .

هذه هى النظرية التى تبنتها المدرسة الساداتية ، عمليا ، وكانت أولى خطواتها هى طرد الخبراء السوفيت إرضاء لأمريكا . وتلتها خطوات أخرى : منح القواعد أو التسهيلات العسكرية ، المشاركة فى بعض الحروب الصغيرة لصالح الغرب (زائير والصومال وتشاد وأفغانستان وغيرها) ، تغيير اتجاه الاقتصاد بحيث يصبح رهينة للبنوك الأمريكية والدولية ، وتأكيد دور القطاع الخاص مع الإقلال من أهمية القطاع العام ، إلخ ..

وهكذا يؤدى الجرى وراء سراب « التحييد » إلى أن يصبح العرب أشبه « بالزوجة الثانية » للزوج الغنى والقوى : أمريكا . وككل زوجة ثانية ، يتعين على العرب أن يتفننوا فى إرضاء أمريكا وإغرائها بالتنازلات حتى تنصرف عن الزوجة الأولى (إسرائيل) . ومع كل ذلك فإن إسرائيل القوية ، التى يتسم نظامها بالثبات ، ولا يتصف بتقلبات الأنظمة العربية ومزاجيتها ، والتى تشارك أمريكا « ديمقراطيتها » واعتمادها على مؤسسات ثابتة ، لا على أهواء شخصية — إسرائيل هذه هى التى تكسب « الزوج » فى

النهاية ، بعد أن تكون الزوجة الثانية قد أعطت أعز ما تملك !

هذه هى النتيجة التى توصل إليها سياسة « التحييد » عمليا . وقد اختبرت هذه السياسة ، كما قلت ، فى حرب أكتوبر ، فكانت النتيجة مزيدا من التدخل الأمريكى لصالح إسرائيل ، مما جعل السادات نفسه يقول : أوقفت القتال لأننى لا أستطيع أن أحارب أمريكا ! ولكن المأساة هى أن نفس اللحظة التى بلغ فيها تدخل أمريكا لصالح إسرائيل ذروته ، كانت هى اللحظة التى بلغ فيها هيام أصحاب سياسة « التحييد » بأمريكا أعلى قممه . ومنذ أن بذلت أمريكا أكبر جهد تملكه من أجل تزويد إسرائيل بأضخم كمية من الأسلحة لكى تقتل بها أبناءنا وتحتل أراضينا ، أصبحت هى الصديق ، ثم الحليف والوليف !

فى كلتا الحالتين إذن ، وسواء وصلنا إلى التحييد عن طريق القوة الذاتية أم عن طريق الاستسلام ، تنتهى سياسة التحييد إلى نتائج مناقضة لذاتها ، وتلغى نفسها بنفسها .

ولنتأمل بعد ذلك نتائج هذه السياسة الجديدة التى نفذت بتخطيط بارع ، بالنسبة إلى حرب أكتوبر .

إن هناك جدلا ضخما ، يثيره هيكل هذه الأيام ، حول الإدارة السياسية لحرب أكتوبر ، ويرى فيه أن هذه الحرب ، التى حققنا فيها إنجازا عسكريا جيدا بجميع المقاييس ، لم تكن نتائجها السياسية على مستوى الأداء العسكرى فيها على الإطلاق . والنقطة الأساسية التى يثيرها هيكل فى هذه الأيام هى أنه كان من الممكن تطوير الحرب حتى الممرات على الأقل منذ الأيام الأولى ، مما يعطينا مركزا تفاوضيا أقوى بكثير . وفضلا عن ذلك فقد كشفنا أوراقنا للعدو فى مراسلات سرية دارت منذ اليوم الثانى للحرب ، اعترفنا فيها بأن هدفنا من الحرب محدود ، وبأننا لن نعمق الصراع أو نوسع جبهاته ، مما أتاح

لأمريكا ، ولهنرى كيسنجر بوجه خاص ، فرصة معرفة خططنا النهائية مقدما واستغلالها لصالح إسرائيل[١] .

وفى تصورى أن الجدل حول هذا الصراع كله ، بالصورة التى طرحها هيكل ، جدل عقيم . ذلك لأن هيكل يفترض أن كيسنجر لم يعرف النوايا المصرية من الحرب ، إلا عن طريق تلك المراسلات السرية ، ومن هنا فإنه يوجه اللوم إلى من كتبها وإلى من أعطى الأمر بكتابتها ، على حين أن كاتبها يدافع عن نفسه بحرارة ضد اتهامات هيكل بشأن هذه المراسلات . وحقيقة الأمر أن أمريكا تعرف نوايا الحرب المصرية منذ أمد بعيد . فهناك عوامل كثيرة كانت كلها كافية لمعرفة هذه النوايا : منها مثلا الصراع بين هيكل والجناح الآخر من الناصريين حول طبيعة الحرب المنتظرة ، ومنها الاتجاه الكامل للدبلوماسية المصرية فى عهد السادات خلال السنوات السابقة للحرب ، ومنها طرد الخبراء السوفيت والسعى إلى مزيد من التقارب والتفاهم مع أمريكا . كل هذه التطورات لم تكن تؤدى بأى حال إلى قيام حرب تحرير شاملة .

ولكن ، لندع الاستنتاجات جانبا ، ولنستمع إلى الأقوال الصريحة والمباشرة . فطوال فبراير ومارس وإبريل ١٩٧٢ ، كانت كتابات هيكل تركز على « الحل السياسى الذى تسانده قوة عسكرية — لا الحل الدبلوماسى فقط ، ولا الحل العسكرى المطلق » . « لا بد أن نفهم أن الولايات المتحدة لن تتحرك — إذا تحركت — إلا تحت ضغط ، وإلا فماذا يدفعها إلى الحركة ؟ القوة العسكرية ، نعم ، ولكن .. وفقا لموازين العصر وفى إطار سياسى شامل »[٢] .

---

(١) انظر أحاديث هيكل فى « الأهالى » خلال شهرى مايو ويونيو ١٩٨٣ .

(٢) « سيادة العقل » — ١٩٧٢/٣/١٧ .

هكذا كان تصور هيكل للحرب هو أن هدفها التحريك ، وتحريك من ؟ الولايات المتحدة بالذات . ولماذا نبحث عن تحريك الولايات المتحدة ، وليس أية دولة أخرى ، كهدف للحرب ؟ ألا يفترض هذا أن أمريكا تملك كل ، أو معظم ، أوراق اللعبة ؟ هكذا يدل كلام هيكل بوضوح على أنه يشارك فى الموقف الرئيسى لسياسة السادات فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى .

ولنستمع إلى كلمات أصرح : « الحرب المسموح بها الآن هى استعمال القوة المسلحة لهدف تتوفر له الشرعية الدولية .. ويتوفر للطرف الذى سيحمل السلاح لتحقيق هذا الهدف تأييد إحدى القوتين الأعظم على الأقل ، ثم يتوفر لهذا الطرف بقوته الذاتية وبما يتلقاه من أصدقائه طاقة لا شك فيها لتحقيق هذا الهدف فى إطار محدد أو محدود . ثم يكون القصد من تحقيقه هو التأثير فى الوضع السياسى . معنى ذلك أنها حرب محدودة .. محدودة الهدف »[١] . هل هناك ما هو أوضح من هذه العبارات فى الدلالة على أن هدف الحرب المحدودة ، لا الحرب الشاملة ، كان مرسوما مقدما ، وأن هيكل كان مشاركا فى التخطيط لهذا الهدف والترويج له ؟

ومع ذلك ، فهناك ما هو أصرح حتى من هذا الكلام : « ليكن أن مصر تشعر أن طاقتها تحتمل أن تحرر بالقوة المسلحة ولو مائة كيلو متر مربع فقط من أراضيها .. وإذا كانت مصر دقيقة فى حساباتها ، فإنها سوف تنجح فى تحقيق ما تريد ، وسوف تحرر بالفعل هذه المائة كيلو متر مربع من أراضيها ، وسوف تحتفظ بها فى وجه أية هجمات مضادة للعدو .. وهذا يغير صورة الأزمة كلها ، ويفتح الباب لتطورات مباشرة أخرى فى مجرى الصراع »[٢] .

---

(١) « نوع الحرب الممكنة ، والضرورية » — ١٩٧٢/٣/٢٤ .

(٢) المقال السابق نفسه .

تأمل معى ، أيها القارئ ، هذا الكلام الواضح ، وتأمل من جهة أخرى تلك الضجة الكبرى التى يثيرها هيكل فى هذه الأيام ، بعد عشر سنوات من الحرب ، وبعد أن نسى الناس ما قاله فى الفترة الممهدة للحرب — أعنى الضجة التى أقام بها الدنيا وأقعدها حول ما يسميه « بالعبارة الكارثة » الورادة فى رسالة سرية من حافظ إسماعيل ، مستشار الأمن القومى المصرى ، إلى كيسنجر ، نظيره الأمريكى ، وتحدث فيها إسماعيل عن نوايا مصر فى جعل الحرب محدودة وعدم توسيع جبهاتها أو تعميق مسارها .. ألم يقل هيكل أكثر من هذا قبل وقوع الحرب ، فى مقالات علنية لا فى مذكرات سرية ؟ هل كانت أمريكا مضطرة إلى انتظار الرسالة السرية حتى تعرف نوايا مصر فى الحرب ؟ والأهم من ذلك ، ألم يكن هيكل نفسه من أهم المروجين لسياسة احتلال مساحة محدودة من الأرض ، والثبات فيها ، وتحريك الأزمة كلها من خلالها — وهو ما حدث بالضبط فى حرب ١٩٧٣ ؟

إن فى وسع هيكل ، بالطبع ، أن يرد بقوله إن ما كتبه قبل الحرب شىء ، وما حدث فى الحرب الفعلية شىء آخر . فقد أتت الحرب نفسها بمفاجأة لمخططى سياسة تحرير مساحة محدودة من الأرض : هى فى الواقع المفاجأة التى كان يدخرها شعب مصر « لعبقرية » السياسيين ، عندما تمكن أبناء الشعب فى جيشهم من العبور بسهولة غير متوقعة ، وأحرزوا نجاحا سريعا قليل التكاليف ، مما أوقع المخططين العباقرة فى حيرة ، وأوجد موقفا جديدا لم يتوقعه واضعو سياسة الحرب المحدودة ، وعلى رأسهم هيكل . ولكن ، هل كان من المعقول أن يحدث تغيير مفاجئ للخطط السياسية فى أعقاب هذا النصر الأول السريع ، بعد أن ظلت الدبلوماسية الرسمية ، من سرية وعلنية ، وأجهزة الإعلام الساداتية والهيكلية ، تبنى كل شىء على أساس حرب محدودة تحرر قطعة أرض صغيرة وتحتفظ بها ؟ لو كان المخططون والكتاب الصحفيون

العباقرة ، قد وضعوا منذ البداية بدائل ، وعملوا حسابا للموقف الذى تحقق ، ضمن هذه البدائل ، لربما أمكن عندئذ أن تتغير السياسة بسرعة تمشيا مع الوضع الجديد . ولكن كل شيء كان مرسوما على أساس حرب التحريك المحدودة ، و لم تنتظر أمريكا رسالة حافظ إسماعيل السرية لكى تعرف ذلك ، بل كان يكفيها أن تثابر — كما أرجح أنها فعلت — على قراءة هيكل .

يبقى أمامنا أن نتساءل : ما تأثير السياسة التى اتخذت مجرى جديدا كل الجدة فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، على التطورات التالية فى مصر وفى العالم العربى ؟ إن هاتين السنتين تحملان ، فى رأيى ، بذرة معظم التطورات التالية . وإذا كان هيكل قد قام بالدور الذى حددنا معالمه فى تهيئة الأذهان لتحول حاسم فى السياسة المصرية ، ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٢ ، وإذا كان قد غير اتجاهه تغييرا جذريا ، مع تغير الحاكم وسياسته ، خلال هاتين المرحلتين ، فإن معنى ذلك أن مسئولية هيكل عن التطورات السلبية المتأخرة للعهد الساداتى مسئولية لا شك فيها . صحيح أن السنين تضيف عوامل ومتغيرات جديدة ، ولكن هذه كلها إضافات للأسس الأولى التى أرسيت فى هاتين السنتين الأوليين ، وعلى رأسها التحالف مع أمريكا ، والحرب المحدودة بهدف الصلح الذى تتوسط فيه أمريكا ، والامتناع عن التسلح عن طريق السوفيت والالتجاء إلى أمريكا ، نفس البلد الذى يقدم لخصمنا سلاحه ويعلن على الملأ أنه يضمن تفوقه .

ومنذ اللحظة التى قررنا فيها اللجوء إلى أمريكا ، لكى تتوسط بيننا وبين إسرائيل ، ومنذ اللحظة التى رفضنا فيها السلاح السوفيتى لكى نختار بدلا منه سلاحا أمريكيا ، حسمت أمور عديدة تحقق الكثير منها فيما بعد . فهذا القرار ينطوى ، بصورة جنينية ، على فكرة الصلح مع إسرائيل ، وجعل العداء للسوفيت هدفا رئيسيا لسياستنا ، والتعاون مع أمريكا ، وتطبيق

أفكارها فى حياتنا الداخلية ، وخاصة الاقتصاد .

ولكى ندرك مرارة هذه الحقيقة ، وخاصة فى ضوء الضجة التى يثيرها هيكل هذه الأيام ضد العهد الساداتى الذى نسى أنه كان فيلسوفه الأول خلال السنوات الأولى والحاسمة من تاريخه . دعونا نفكر بإمعان فى مغزى عبارة هامة قالها موشى دايان ، تعليقا على رحلة السادات بالطائرة إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ : « لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الخبراء السوفيت وبدأ سياسة تنويع السلاح وقبل باتفاقات فك الاشتباك بكل ما يعنيه ذلك من استبعاد للخيار العسكرى »[١] .

هذا كلام خطير بقدر ما هو واضح : فأولئك الذين رسموا سياسة تنوع التسلح عن طريق طرد الخبراء السوفيت والترويج لفكرة التقارب التدريجى مع أمريكا ، هم الذين أداروا محركات طائرة السادات المتجهة إلى القدس ، لأنهم ربطوا مصير بلادهم وجيوشهم بمصير راعية إسرائيل وحاميتها . ومن الواضح أن هيكل ، بالنسبة إلى هؤلاء ، كان كبيرهم ومفكرهم وموجههم . فالبذرة الأولى قد غرستها يد هيكل ، وما يتبقى بعد ذلك ليس إلا من قبيل التفاصيل . ومع ذلك فإن هيكل نفسه هو الذى يأتى فى أيامنا هذه ، وينعى على السادات ركوبه تلك الطائرة التى كان هو ذاته قد زودها بالوقود وأدار لها المحركات .

أتريد ، أيها القارئ معرفة الأصول الأولى للكارثة الحالية و « الجذور » ؟ اقرأ صفحات هذا الفصل ثانية ، وفكر فيها بإمعان .

---

(١) النص مأخوذ عن محاضرة للأستاذ توفيق أبو بكر فى رابطة الاجتماعيين بالكويت ، فى ١٩٨٣/٤/٢٥ ، وعنوان المحاضرة هو « الولايات المتحدة والصراع العربى للصهيونى » .

الفصل التاسع

عمنا سـام

لست أدرى لم اختار هيكل أن يوجه كتابه عن السادات إلى الجمهور الأمريكى على وجه التحديد . ولكن الأمر المؤكد هو أنه ، طوال هـذا الكتاب ، كان يضع فى ذهنه هذا الجمهور وهو يشرح هذه النقطة أو تلك ، ويقوم بهذا التحليل أو ذاك ، مما أعطى الكتاب ، فى مواضع غير قليلة ، طابعا غير مألوف لدى القارئ العربى .

فمنذ اللحظة الأولى ، يركز هيكل على صفة « النجوميـة » ، وعلى « صناعة النجم » ، وكأنها هى التى تلخص شخصية السادات ، مع أنها ــ من وجهة نظر كاتب هذه السطور ــ لا تزيد عن كونها أسلوبا ملائما لجمهور أجنبى اعتاد التهريج السينمائى حتى أصبحت صفة « النجوميـة » أساسية عنده ، حتى فى اختياره لرئيس جمهوريتـه . وهكـذا يتحـدث « خريف الغضب » فى مقدمته عن نجوم العصر ، فيضع ضمنهم « جاكلين كيندى » ، ويشعر القارئ العربى بأنه تلقى لطمة وهو يقرأ عن هذه النماذج المنحلة ، وإن كان القارئ الأمريكى لا يرى أية غرابة فى ذلك . والواقع أن السادات لم يكن فى وقت من الأوقات نجما بالنسبة إلى شعبه ، أعنى المصريين والعرب على حد سواء ، بل كان نجما فى نظر الأمريكان وبعض الأوروبيين ، وذلك لأسباب لا علاقة لها بشخصه ، وإنما بسياسته .

إننا نعلم جميعا أن أجهزة الإعلام الغربية ، والأمريكية بوجه خاص ، قد

تعمدت أن تضخم صورة السادات . و لم يكن ذلك راجعا فقط إلى إعجاب هذه الأجهزة بذلك الصديق المخلص الجديد ، أو إلى صفات معينة فى شخصيته أهلته لكى يكون فى نظرها « نجما » ، وإنما كان يرجع قبل كل شيء إلى رغبتهم فى الحصول منه على المزيد من التنازلات ، عن طريق خدعة الإعجاب الإعلامى الزائد . فقد كان من الواضح أن لدى السادات ، شأنه شأن معظم الحكام الفرديين ، وربما بصورة أشد تطرفا من الباقين ، ميلا شديدا إلى الإحساس بأهميته وخطورته ، وكان ذلك يتجلى بوضوح حين تنشر الصحف المصرية ، على الدوام ، تعليقات الصحف والإذعات الأخرى على خطاباته لكى تبين مدى إعجاب الآخرين به . وقد أتقن الأمريكيون فن دراسة نقاط الضعف فى شخصيات الزعماء ، وخاصة فى العالم الثالث ، للاستفادة من نقاط الضعف هذه بقدر ما يستطيعون . وهكذا كان كل مقال يكتب عن السادات فى صحيفة أمريكية ، وكل صورة له ، أو لأسرته ، على غلاف مجلة أمريكية ، تعنى مزيدا من التنازلات ، ومزيدا من الترحيب بالنفوذ الأمريكى ، ومزيدا من الامتيازات الاقتصادية أو العسكرية التى تمنح للغرب بوجه عام .

لم تكن المسألة إذن مسألة « نجومية » ، وإنما كانت « صناعة النجم » هذه ، فى حقيقتها ، استغفالا واستغلالا لغرور حكام العالم الثالث . ومع ذلك فإن هيكل أراد فى كتابه أن يصحح فكرة الجمهور الأمريكى عن « معبوده » الجديد ، وأن يرسم له الصورة التى يعتقد أنها حقيقية ، فى مقابل الصورة المتطرفة فى الإعجاب ، التى صورتها أجهزة الإعلام الأمريكية للسادات . ولكن ، ما الذى يدعونا إلى تصحيح فكرة المجتمع أو الرأى العام الأمريكى عن السادات ، وما الذى سنجنيه من ذلك ؟ إن أمريكا هى العدو الأول لأمانى الشعب العربى وتطلعاته ، فلماذا نجهد أنفسنا لكى نقدم إليها

الصورة الصحيحة — إن كانت بالفعل صحيحة ؟ لماذا لم يوجه الكتاب ، مثلا ، إلى المعسكر الاشتراكى ، أو إلى العالم الثالث ، أو إلى الشعب العربى ، ولماذا يحرص المؤلف منذ الصفحات الأولى على أن يؤكد أن صورة السادات عند الغرب لم يكن لها ما يبررها ؟ ألا يزال عندنا نوع من « الأمل » فى أمريكا حتى نتعشم منها خيرا عندما تصحح فكرتها عن زعمائنا ؟

إن دور النشر الأمريكية أقدر من غيرها على ترويج الكتب . هذا صحيح ، ولكن هناك فارقا بين كتاب ينشر فى دار أمريكية ، وكتاب يؤلف من وجهة نظر تستهدف مخاطبة الجمهور الأمريكى ، وأعتقد أن اهتمام هيكل بمحور « الممثل » « والنجم » ، وبالعوامل والعقد النفسية فى النشأة الأولى ، واستخدام تشبيه « ترومان » لتبرير تعاونه مع السادات فى السنوات الأولى من حكمه ، كل ذلك يدل على أن هيكل كان يخاطب فى الأساس جمهورا أمريكيا ، ولم يكن ينشر فى دار أمريكية فحسب .

على أن الهدف الذى كان يرمى إليه هيكل من هذا كله هدف عقيم . فمن العبث أن يحاول أى مؤلف تصحيح صورة حاكم أعجب به الجمهور الأمريكى لأسباب لا علاقة لها ، فى الواقع ، بشخصيته أو مسلكه . إن ما يهم أمريكا ، شعبا وحكومة وصحافة وإعلاما ، هو المصالح ، وليس خفة دم هذا الحاكم أو طيبة قلب ذاك . ومن الممكن بالفعل أن يعجب الأمريكيون بحاكم من أجل هذه الصفات الشخصية ، ولكن « بعد » أن يكون هذا الحاكم قد خدم مصالحهم ، أما إذا تعارضت سياسته مع المصالح الأمريكية ، فعندئذ لن يشفع له فى نظرهم أن يكون فى خلقه الشخصى قديسا . وهكذا فإن الأمريكيين لا يكونون صورتهم عن أى زعيم على أساس فضائله الداخلية أو الشخصية ، أو حتى طريقته السليمة فى الحكم ، بل على أساس ما يمكن أن يجنوه منه من فوائد . فالسادات كان معبود الأمريكيين ، لا لأن شخصيته كانت محببة

لديهم ، بل لأنه حقق لهم أكثر مما كانوا يحلمون فى الشرق الأوسط كله : فأخرج السوفيت من أهم بلد عربى ، وفتح الأبواب للأسلحة والخبراء الأمريكيين ، وأعطى الاستراتيجية الأمريكية قواعد أو ركائز أو تسهيلات (سمها ما شئت ، فالحقيقة واحدة) ، وجعل محاربة الشيوعية هدفا له الأولوية المطلقة على مكافحة الصهيونية ، وتطرف فى تحديد المقصود « بالشيوعية » حتى أدمج فيها كل حركة وطنية تكافح الاستعمار والاستغلال . أما مسألة ما إذا كان حاكما جيدا أو سيئا ، وما إذا كان قادرا على حل مشاكل شعبه أم مشاركا فى تخريبه ، فهذه مسائل لا تهم الأمريكيين كثيرا . وكم من طاغية فى أمريكا اللاتينية ، مثلا ، كانت فضائحه وجرائمه على ألسنة الناس فى العالم أجمع ، ومع ذلك كان الأمريكيون معجبين به أشد الإعجاب ، ويساعدونه بكل طاقاتهم فى تثبيت حكمه الإرهابى : كما حدث فى حالة سوموزا ، وباتستا ، وما يحدث حاليا فى حالة بينوشيت . وأستطيع أن أقول إن هذا ليس الموقف الرسمى للحكومة الأمريكية وحدها ، بل إن الشعب الأمريكى ذاته قد تشكلت عقوله بحيث يوجه إعجابه بأى حاكم أجنبى فى اتجاه مصالحه ، لا فى اتجاه مصالح البلد الذى يحكمه هذا الحاكم . وهكذا فإن محاولة هيكل أن يفتح عيون الأمريكيين على حقيقة السادات محاولة فاشلة ، بل إنها تفرض منذ البداية صفات فى الجمهور الأمريكى لا يمكن أن توجد فيه . وهنا لا يملك المرء إلا أن يكرر السؤال الذى بدأنا به هذا المقال : لماذا اختار هيكل الجمهور الأمريكى لكى يوجه إليه حديثه فى هذا الكتاب ؟

إن المرء يستطيع أن يقول ، باطمئنان ، إن علاقة هيكل بأمريكا علاقة حميمة ، خاصة جدا . فمنذ البداية كانت أمريكا هى الموضوع الرئيسى الذى دار حوله الخلاف بينه وبين الأجنحة الناصرية الأخرى ، فضلا عن اليسار

بطبيعة الحال . وكان إيمان هيكل بقوة أمريكا وتأثيرها ودورها وعدم إمكان تجاهلها ، إيمانا راسخا لا يتزعزع ، أما الكتابات التى هاجم فيها أمريكا فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر فلا تمثل أى اتجاه دائم لديه ، وإنما كان هذا الهجوم ضرورة تكتيكية فى ظل الظروف السائدة بعد هزيمة ١٩٦٧ . وما أن استتب الأمر للسادات ، حتى عاد الاتجاه الأمريكى للظهور ، وكان التحول الذى طرأ على اتجاه السياسة المصرية نحو أمريكا فى عام ١٩٧٢ ، والذى دعا إليه هيكل بحماسة بالغة ، هو نقطة البدء الحقيقية فى التغلغل الأمريكى فى المنطقة العربية كلها ، وليس اتفاقية فض الاشتباك ، كما يؤكد هيكل باستمرار .

ومما يلفت النظر أن هيكل ، فى كتابه عن السادات وفى أحاديثه الصحفية عن فترة ١٩٧٣ و ١٩٧٤ ، التى تزايدت بصورة ملموسة فى الآونة الأخيرة ، لم يذكر شيئا عن حصار الجيش الثالث فى الضفة الشرقية للقنال من حيث هو أحد الأسباب الرئيسية للتوقيع على اتفاقية فصل القوات ، أو فض الاشتباك ، التى بدأ فيها الخلاف يظهر بين السادات وهيكل . ذلك لأن الحصار الكامل الذى فرضته إسرائيل على هذا الجيش ، كان هو الأساس الأهم للصفقة التى تمت بين السادات وأمريكا : إذ تعهدت هذه الأخيرة بأن تحفظ للسادات ماء وجهه ، ولا تسمح لإسرائيل بتجويع الجيش الثالث أو بدفعه إلى الاستسلام ، وفى مقابل ذلك اعترف السادات لأمريكا بالجميل ، لكى يظل قادرا على القول إن جيوشه كانت فى الضفة الشرقية حتى نهاية الحرب ، ووقع اتفاقية فض الاشتباك الأولى ، وهذه جرت الثانية ، كما جرت معها مزيدا من النفوذ لأمريكا فى المنطقة . فما سبب تجاهل هيكل لهذا العامل الحاسم ، على الرغم من أحاديثه المسهبة حول هذه الفترة ؟

لقد تم هذا الحصار وتحقق بمساعدة مباشرة من أمريكا ، وكانت الدبابات

تنزل من سفن الشحن أو الطائرات الأمريكية إلى ساحة المعركة مباشرة ، كما لعبت الأقمار الصناعية ووسائل التجسس الأمريكية دورا أساسيا فى تحديد مكان الثغرة التى أدت آخر الأمر إلى هذا الحصار ، وهو موضوع شرحه هيكل بالتفصيل فى مقالاته التى كتبها عن هذه الفترة . فما الذى جعله يمتنع عن الخوض فى هذا الموضوع الحيوى فى كتابه الأخير ؟ هل يرجع ذلك إلى أنه لم يشأ أن يقول للجمهور الأمريكى ، الذى وجه إليه الكتاب ، إن الوضع السيئ الذى وجد فيه الجيش الثالث نفسه كان من صنع أمريكا ؟ هل يرجع إلى أنه لم يشأ أن يتحدث عن الصفقة التى يمكن أن تكون قد عقدت بين السادات وأمريكا ، بحيث يقايض السادات إنقاذ أمريكا له من الكارثة المحلية والفضيحة الدولية المترتبة على خنق الجيش الثالث وإحكام القبضة على عنقه بالتدريج ، مقابل إبداء الاستعداد التام لقبول المطالب الأمريكية ؟ إننا هنا ندخل منطقة البحار العميقة ، التى تمس صميم الصفقات والاتفاقات السرية ، والتى يصعب الكلام عنها إلا عن طريق الاستنتاج . ولكن تسلسل الأحداث جاء كما يلى : أخذت السياسة المصرية تتجه منذ عام ١٩٧١ ، نحو الميل إلى الطرف الأمريكى والابتعاد عن الطرف السوفيتى ، وتقدم هيكل بالنظرية التى تقول بإمكان إيقاف فاعلية أمريكا فى مساعدتها لإسرائيل فى ظل ظروف وتوازنات دولية معينة ، وطبقت هذه السياسة عمليا ، وكانت أهم خطواتها طرد الخبراء السوفيت بطريقة مدوية ، ثم قامت حرب أكتوبر ، وكانت لدى أمريكا معرفة كاملة بالطبيعة المحدودة لهذه الحرب ، فى ضوء اتجاهات السياسة المصرية كلها ، وفى ضوء كتابات هيكل الصريحة والواضحة حول هذا الموضوع . ولكن السياسة الجديدة التى كان النبى المبشر بها هو هيكل ، أتت بنتائج عكسية تماما : فبدلا من « تحييد » أمريكا ، قامت أمريكا بأعظم وأسرع عملية إنقاذ فى التاريخ ، زودت فيها إسرائيل عبر

جسر جوى جبار بما يكفيها للصمود فى وجه الأداء المصرى والسورى الممتاز فى الأيام الأولى للحرب ، ثم الانتقال إلى الهجوم الذى أسفر ، فى سوريا ، عن تهديد دمشق ذاتها ، وفى مصر عن ثغرة أخذت تتسع بالتدريج حتى حاصرت الجيش الثالث كله حصارا كاملا . كان هذا الانقلاب فى الميزان العسكرى من صنع أمريكا فى المحل الأول ، وعندما أمسكت بكل الخيوط فى أيديها بدأت تحركها كما تشاء ، وبدلا من أن تتمكن السياسة المصرية من « تحييدها » ، أصبح الجيش الثالث وسمعة مصر وهيبة النظام ورجاله رهينة فى أيديها . وبدأ مسلسل توقيع الاتفاقات الاستسلامية .

هذا الجانب من الموضوع سكت عنه هيكل تماما وسط الضجيج الهائل الذى أثاره فى كتابه الأخير ، وفى أحاديثه الصحفية الكثيرة هذه الأيام ، حول حرب أكتوبر . فهل كان سكوته شعورا بالحرج من أن تنكشف النتائج المأسوية لدعوته إلى سياسة « التحييد » ، أم كان امتناعا عن الغوص فى البحار العميقة ، التى تهدد من يقترب منها بالغرق ؟

أيا ما كان الجواب ، فإن هذه هى المرحلة التى أقام فيها السادات اتصالا وثيقا مباشرا مع الأمريكيين ، وفيها يروى هيكل قول السادات لكيسنجر ، عندما اجتمع به فى بداية محادثات فض الاشتباك الأول ، « لماذا لم تأت من قبل ؟ » وفى رأيى الشخصى أن هذا الاتصال المباشر الذى أقامه السادات مع الأمريكيين منذ ذلك الحين ، والذى ازداد توثقا مع الأيام خلال السنوات التالية ، كان من الأسباب الرئيسية للجفوة ثم الخلاف بين هيكل والسادات : إذ كان السادات قبل هذه الفترة يعتمد كثيرا على هيكل فى كل ما يتعلق بالاتصال بالأمريكيين ، على أساس الصلات الوثيقة التى كانت تربط هيكل بهم ، وعلى أساس ما كان شائعا عنه من أنه يفهم الأمريكيين أكثر من غيره . ولكن منذ أن أقام السادات جسوره المباشرة بنفسه ، ومنذ أن فتحت قنوات

اتصال واسعة بينه وبينهم ، لم يعد فى حاجة إلى صلات هيكل أو خبرته الأمريكية ، وبدأ يتجه إلى الاستغناء عنه . وفى الوقت ذاته فإن هيكل ، عندما شعر بأنه يستبعد بالتدريج ، أخذ يوجه انتقاداته إلى سياسة السادات ، لا سيما وأن هذا الأخير قد سكر بنشوة الغرام الأمريكى إلى حد أنه أوقع نفسه فى أخطاء لا حصر لها ، بينما كان هيكل يعرف جيدا أن أمريكا لا ترتبط طويلا بالعشيق الولهان بحبها أكثر مما يجب ، والذى يفصح عن هذا الحب علنا ودون مواربة . إنها سرعان ما تنبذ كل من يفضح غرامه بها ، لأنها تفضل دائما العلاقات الخفية ، المستورة ، الشديدة الفعالية ، ولا بأس — حتى — من مهاجمة أمريكا فى العلن من آن لآخر ، حتى تظل الروابط الخفية قائمة .. هذا هو قانون الغرام الأمريكى الذى لم يفهمه السادات فدفع حياته ثمنا لعدم الفهم .

وهنا نصل إلى منطقة أخرى من مناطق البحار العميقة ، مر عليها هيكل فى كتابه سريعا ، وعالجها بطريقة غير متعمقة ، مع أنها كانت تستحق وقفة متأنية وتحليلا متعمقا — وأعنى بها موضوع مقتل السادات ، واحتمال وجود دور لأمريكا فيه . فهيكل قد حرص على تبرئة الأمريكيين من أية شبهة فى هذا الحادث ، بعد مناقشة موجزة تنم عن رغبته فى أن ينفض يديه بسرعة من هذه المسألة الشائكة ، فى الوقت الذى حرص فيه على أن يتقصى خبايا مسائل أقل أهمية من هذه بكثير .

فحين طرح هيكل النظرية القائلة بوجود مؤامرة أمريكية فى قتل السادات ، استبعدها بسرعة لثلاثة أسباب تبدو فى نظرنا غير مقنعة على الإطلاق :

السبب الأول : أن نظام السادات كان أحد الدعائم الرئيسية فى سياسة ريجان المعادية للشيوعية فى المنطقة ، واستطاع التدخل فى بعض بؤر المتاعب

الأفريقية (متاعب من وجهة نظر أمريكا بالطبع ، أما من وجهة نظر العالم الثالث فهذه « المتاعب » هى حركات تحرير وطنى) . والسبب الثانى أن الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل سقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين من سقوط الشاه الأصلى فى إيران .. أما الثالث فهو أن من الصعب تصور وجود تلاق فى الفكر أو العمل بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين التنظيمات الإسلامية .

هذه الأسباب لا تكفى على الإطلاق لتبرئة أمريكا من تهمة التآمر على قتل السادات ، إذ أن محاربة السادات للشيوعية تتوقف على مقدار فاعليته كحاكم ، بين شعبه والشعوب العربية الأخرى . أما فقدان السادات لفاعليته بين الشعوب العربية فكان قصة معروفة ، بدأت منذ فض الاشتباك الأول ، وانتهت إلى قطيعة تامة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وهو أمر ينبغى أن تضعه أمريكا فى اعتبارها عندما تحسب مدى فائدته لها كصديق . وأما فاعليته بين شعبه فقد شهد بضياعها كثير من الأمريكيين ، ومنهم سفراء فى المنطقة نشروا تقارير مشهورة تضمنت نقدا مريرا لسياسة السادات . وكان الشاهد الأكبر على فقدان السادات فاعليته كصديق ينفع أمريكا فى تحقيق سياستها فى المنطقة ، هو حركة اعتقالات سبتمبر ، التى أغضبت الجميع ، ولم تترك للسادات صديقا فى مصر ، بدءا بأقصى اليمين ، حتى أقصى اليسار ، مرورا بأحزاب المعارضة والسياسيين المخضرمين . فما قيمة هذا الصديق الذى يفقد فاعليته فى بلده إلى هذا الحد ؟ إن من اللافت للنظر أن حجم الانتقادات التى وجهت إلى أسلوب حكم السادات ، بعد اعتقالات سبتمبر ، التى سبقت اغتياله بشهر واحد ، كان هائلا إلى درجة أدهشت السادات نفسه . فقد ثارت الصحافة الغربية ، فى أمريكا بوجه خاص ، ثورة عارمة على ممارسات السادات غير الديمقراطية ، وهو أمر ليس من عادتها أن تقوم به بالنسبة إلى

أصدقائها فى أمريكا اللاتينية ، مثلا ، الذين يصفّون الألوف من معارضيهم جسديا دون أن تتحرك الصحافة إلا فيما ندر . وهكذا كان واضحا أن نفس أولئك الذين « صنعوا النجم » قرروا أن وقت أفوله قد حان .

أما عدم تحمل أمريكا لسقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين ، فهو حجة لا تقنع أحدا ، إذ أن أمريكا تستطيع أن تتحمل سقوط ألف شاه ما دامت واثقة من أنها ستجد البديل . ولا ننسى أن الشاه كان يؤكد دائما أن أمريكا هى التى ألقت به بعيدا « كالفأر الميت » ، بل إن احتمال اشتراك مخابراتها فى التعجيل بموته قد أثير بقوة فى كثير من الأوساط .

تبقى أخيرا مسألة استبعاد وجود تلاق فى الفكر أو العمل بين المخابرات المركزية الأمريكية والتنظيمات الإسلامية . وهذه فى الواقع حجة شديدة السذاجة ، لا يملك المرء إزاءها إلا أن يقول لهيكل :أنت تعرف خيرا من ذلك ! فالمخابرات الأمريكية لن تتلاقى مباشرة بالطبع ، فى الفكر أو العمل ، مع أى تنظيم كذلك الذى قتل السادات ، وإنما ستعمل من خلال « وسائط » قريبة من فكر هذا التنظيم وعمله ، وما أكثر هذه الوسائط فى البلاد الإسلامية . ولا بد أن يكون أسلوب العمل هو الاتصال عن بعد ، بحيث لا يشعر المنفذون الأصليون بوجود أى تحريض خارجى على الإطلاق ، وتظل دوافعهم الدينية الأصلية هى التى تدفعهم طوال الوقت . وينبغى أن نلاحظ أن تغلغل أجهزة المخابرات العالمية فى الجماعات الشديدة التطرف ، يمينا ويسارا ، هو أسهل الأمور ، وهو حادث بالفعل على نطاق عالمى . وعلى أية حال فإننا هنا ندخل منطقة من أخطر مناطق البحار العميقة ، التى ينبغى فيها على شهر زاد أن تسكت عن الكلام المباح ، وإلا فلن يدركها الصباح !

إن إبداء رأى قاطع فى مثل هذه الأمور التى هى بطبيعتها شديدة الخفاء ، والتى تدبر بإحكام وتكتم بالغ ، هو أمر مستحيل . ويكفى أن رئيس

جمهورية أمريكى مشهور ، هو جون كيندى ، قد اغتيل فى ظروف مريبة إلى أقصى حد ، ويشعر الكثيرون أن أجهزة أمريكية خفية هى التى قتلته ، ولكن الموضوع ظل حتى يومنا هذا غامضا ، يثير علامات استفهام كبرى ، بعد أن قدمت هذه الأجهزة شخصا على أنه القاتل ، ثم قتلت هذا القاتل ، ثم قتلت قاتل القاتل .. إنها أمور لا تتكشف حتى لأدق لجان التحقيق ، ولكن « الضحايا » ، الذين يعرفون أساليب هذه الأجهزة خيرا منا جميعا لأنهم تعاملوا معها طويلا ، غالبا ما يفهمون طبيعة ما حدث ، فقد أدرك شاه إيران ، كما قلنا ، إن سلبية قادة جيشه إزاء المظاهرات العارمة فى أيامه الأخيرة لا بد أن تكون راجعة إلى أوامر من أسيادهم الأمريكان . وكانت زوجة السادات وأسرته ، كما قال هيكل نفسه ، من أقوى المؤيدين لنظرية المؤامرة الأمريكية ، ولم يعدلوا عنها لأسباب منطقية ، بل لأسباب مصلحية : « فقد وجد أفراد الأسرة أنها (أى النظرية) لا تستطيع أن تصل بهم إلى شىء ، بل بالعكس قد تضر مصالحهم مع قوة يعتبرون أنها قادرة على حمايتهم » .

إنها كما قلت موضوعات شديدة التعقيد ، يكاد يستحيل كشف وقائع ملموسة تلقى الضوء على خباياها ، وكل ما يملكه المرء إزاءها هو أن يستنتج ، ويرجح الفرض الذى يفسر أكبر عدد ممكن من الظواهر . وأحسب أن افتراض وجود مؤامرة أمريكية ، بالصورة التى عرضناه بها ، أقدر من غيره على تفسير أشياء كثيرة ، فضلا عن أنه لا يتعارض مع الفرضين الآخرين ، أعنى وجود مؤامرة داخل الجيش ، ووجود تنظيم إسلامى واسع النطاق هو الذى تولى تنفيذ العملية . فمن الممكن أن يكون لهذه الجهات الثلاث معا دور فى تلك العملية التى خططت ونفذت بإحكام يفوق الوصف ، وهو احتمال لم يعرض له هيكل ، فى حرصه الشديد على استبعاد الفرض الأمريكى بسرعة .

ولكن ، إذا تركنا هذا الميدان الشديد الغموض ، المحفوف بالمخاطر ، وانتقلنا إلى التحليل السياسى المرتكز على أرض أكثر صلابة ، لوجدنا أن أمريكا ، إن لم تكن قد خططت لقتل السادات ، فإنها حكمت عليه بالإعدام سياسيا ، بعد أن استهلكته واستنفدت أغراضها منه .

فبعد أن وقع السادات معاهدة كامب ديفيد ، بما فيها من بنود مفصلة بشأن انسحاب إسرائيل من سيناء والتطبيع معها ، وبما فيها من إشارات قليلة شديدة الغموض عن القضية الفلسطينية ، وبعد أن ثارت ثائرة العالم العربى على هذه المعاهدة وقاطعت معظم بلاده علاقاتها بنظام السادات ، كانت أمريكا تستطيع أن تسلك طريقا من طريقين :

الطريق الأول هو أن تدعم السادات وتضمن مستقبله السياسى عن طريق إثبات صحة موقفه أمام العالم العربى . ويقتضى هذا الطريق أن تتطور الاتفاقية بحيث تصبح أكثر من مجرد صلح منفرد بين إسرائيل ومصر ، أى أن تسير — كما طالب السادات مرارا — فى طريق التسوية الشاملة . مثل هذا المسلك سيكون فيه إنقاذ للسادات ، لأنه رهن مستقبله السياسى ، وعلاقاته مع العالم العربى بأسره ، على هذا التوقع . ولو سارت أمريكا ، ومعها إسرائيل ، فى هذا الطريق ، وحققت للسادات على الأقل جزءا مما يريد ، خارج نطاق التسوية المحلية بين مصر وإسرائيل ، لاستطاعت أن تعيد إليه مكانته فى العالم العربى ، ولأمكنها أن تربط كثيرا من البلاد العربية بعجلة الاتفاقية الجديدة .

ولكن هذا الطريق كان ينطوى ، من وجهة نظر أمريكا ، على عيوب واضحة : إذ أنه يؤدى إلى دفع ثمن باهظ ، هو الانسحاب الا سرائيلى من الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ ، وإلى توحيد البلاد العربية فى خط سياسى واحد ، يقوى جبهتها فى المطالبة بالحقوق الفلسطينية ، وقد يؤدى فى المدى الطويل إلى إنشاء كيان فلسطينى على مستوى معقول ، فضلا عما تؤدى إليه

التسوية الشاملة ، بشروط معقولة ، من توفير ضخم للأموال والطاقات العربية فى اتجاه التنمية والتعمير .

أما الطريق الثانى ، الذى يرجح أن إسرائيل قد ألحت عليه ، واستجابت لها أمريكا بعد أن اقتنعت بأنه أكثر تحقيقا لمصالحهما المشتركة، فهو عدم مجاملة السادات ، وعدم بذل أى جهد من أجل إنقاذه من ورطته ، ما دام قد أدى مهمته الأساسية ، وعدم التنازل لبقية العرب عن شىء . هذا الطريق يتضمن من وجهة النظر الأمريكية — الإسرائيلية ، مزايا عديدة : بقاء العالم العربى ممزقا وفى حالة ضعف شديد ، والاستفراد بكل دولة بعد الأخرى وعزلها عن الباقين ، وإخراج مصر نهائيا من الصراع العربى الإسرائيلى وضمان حرية الحركة الكاملة لإسرائيل . وهكذا فإن مزايا هذا الطريق أعظم بكثير ، من وجهة نظر جبهة الأعداء ، من الطريق الآخر .

وكان الثمن الوحيد الذى ينبغى دفعه فى حالة اتباع هذا الطريق الثانى ، هو التضحية بالسادات ...

والآن تخيل نفسك أيها القارئ أمريكيا مخلصا ، حريصا على مصلحة بلدك وعلى ارتباطات هذا البلد بالدولة الصهيونية التى تحقق له كل أهدافه فى المنطقة ، فأى الطريقين تختار ؟ تهديدك لمصالح بلدك وحلفائك من أجل فرد واحد مخلص لك ، أم التضحية بالفرد وبمستقبله ، مهما كان إخلاصه ، من أجل ضمان مصالحك وزيادة مكاسبك ؟

لقد كان جواز المرور الوحيد لدى السادات أمام العالم العربى ، والمبرر الوحيد لتوقيعه المعاهدة ، هو أن تستمر قوة الدفع إلى أن تتحقق التسوية الشاملة . ولكن الطرف الآخر — وله كل الحق فيما فعل ، من وجهة نظره الخاصة — وجدها فرصة ذهبية لتوريطه ، وتركه عاريا فى منتصف الطريق ، فضمن المكسب وتجنب الخسارة . وهكذا ، فمنذ اللحظة التى ساندت فيها

أمريكا حليفتها إسرائيل فى تعنتها ، ومنذ اللحظة التى قررت فيها أمريكا ألا تضغط على إسرائيل إلى الحد الذى يلزمها بالسير قدما نحو التسوية الشاملة — منذ هذه اللحظة كانت قد حكمت على السادات بالإعدام .

ولقد أدرك هذه الحقيقة بوضوح تام السفير الأمريكى الأسبق فى مصر ، لوشيوس باتل ، وعبر عنها بكلمات بالغة الدلالة فى المقال الذى كتبه فى رثاء السادات : « كلما كانت الولايات المتحدة تضغط عليه للدخول فى كامب ديفيد ، كان تعرضه للخطر يزداد ، فلن نقبل نحن ولا الإسرائيليون نتائج الأخطار التي كنا ندفعه إليها . وقد كانت الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بواسطتها أن يصبح لاتفاقيات كامب ديفيد معنى فى نظر السادات هى افتراض إمكان التقدم نحو صلح شامل ، وكان من الضرورى أن تظهر علامات واضحة على أن طريقه هو الصحيح ، حتى يحذو العرب الآخرون فى الوقت المناسب حذو السادات ، وهو أمر كان يقتضى فهما من جانب إسرائيل وضغطا من الولايات المتحدة على الفريقين لتحريك مباحثات الحكم الذاتى وخفض عدد المستوطنات فى الضفة الغربية . ولكن بدلا من ذلك ، زادت المستوطنات ، وأضيفت إهانة ضرب المفاعل فى العراق وقصف بيروت . و لم تفعل الولايات المتحدة شيئا .. وهكذا أصبح السادات شهيدا لنفسه وللعالم الغربى ، ولكن ليس للشرق الأوسط ، سواء منه العربى أو الإسرائيلى » .

« لقد كانت المجموعة الأمريكية التى شيعت جنازته ضخمة إلى حد لم يعرف له مثيل من قبل . وهكذا فإننا بعد أن خذلناه حيا ، قد احتضناه ميتا »[١] .

---

(١) انظر مقال Anwar Sadat Remembered المشار إليه صفحة ٧١ ومن ص ١٤١ إلى ص ١٤٩ لوشيوس باتل .

فى هذه الشهادة المباشرة ، يظهر بوضوح أن السادت كان ، بالنسبة إلى أمريكا ، قد استنفد أغراضه ، وأدى ما هو مطلوب منه ثم تُرك لمصيره المحتوم . ولم يعد مجديا بعد ذلك أن يحاول استرضاءهم بتصريحات حامية ضد الشيوعية ، إذ أنهم كانوا قد أداروا له ظهورهم ، وعندما زارهم قبل مصرعه بشهرين ، كان واضحا أنه لم يعد فى نظرهم الزعيم المفضل الذى كان . ومنذ كامب ديفيد ، بل منذ زيارة القدس ، أدرك أصدقاء أمريكا ، الأكثر منه ذكاء والأبعد منه نظرا ، أن السفينة غارقة لا محالة ، وهكذا قفز منها إسماعيل فهمى ، ثم منصور حسن ، ثم هيكل ، الذى كان على أية حال واعيا بأبعاد الأزمة قبل الجميع . ولو لم يكن القتل الفعلى قد تم بتدبير من أمريكا ، لأمكن القول — على أقل تقدير — أن أمريكا هى التى قيدت يدى السادات بالسلاسل ، وأمسكت برأسه وشدتها إلى الوراء ، ولم يبق إلا السكين التى تذبح .

ومن هنا فإنى أرى أن مرور هيكل السريع على مسألة دور أمريكا فى مقتل السادات واستبعاده أى فرض يحملها مسئولية ما حدث لصديقها العتيد ، هو أمر لا يمكن تفسيره إلا بأحد أمرين . إما أن هيكل يشعر بالخطورة الشديدة لخوض هذا الموضوع ، الذى لا بد أن « أرشيفه » يمتلئ بالوثائق والمعلومات عنه ، وإما أنه يريد أن يبعد عن ذهن القارئ أى احتمال لتورط أمريكا ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، فى هذه العملية .

* * *

إن المنحى العام لكتابات هيكل ، فى مراحلها المختلفة ، يقنع كل من يتابعها بدقة بأنه كان يرتبط بأمريكا فى علاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التى يوجهها إليها فإنها الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ، لأن أصدقاء أمريكا ، إذا كانوا أذكياء ، لا بد أن يهاجموها من آن لآخر ، بل إنها هى ذاتها التى تطالبهم بذلك .

وأنا أعرف أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لدى هيكل ، ولذلك فإننى سأتبع فى إثباتى لما أقول ، أكثر الطرق أمانا ، وأعنى به الاستعانة بما يقول هيكل نفسه .

فى أحد المواضع فى كتاب « مدافع آية الله » يتحدث هيكل عن وساطة طلبتها منه أمريكا من أجل مشكلة الرهائن الذين كانوا محتجزين فى السفارة الأمريكية بطهران ، مرة قبل محاولة أمريكا الفاشلة لإنقاذ الرهائن بالقوة الأولى فى صحراء تاباز ، ومرة أخرى ، بعد قيام هذه المحاولة وفشلها الذريع . فى المرة الأولى سأله هارولد سوندرز ، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ، عما إذا كان على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر ، فأجاب هيكل بأنه على استعداد لمساعدة الإيرانيين . ومن الواضح أن السؤال أهم ألف مرة من الجواب . فما الذى يدفع موظفا رسميا أمريكيا إلى أن يسأل صحفيا مرموقا فى دولة يوجد بينها وبين أمريكا تضارب شديد فى المصالح ، عما إذا كان على استعداد لمساعدة رئيس دولته ؟ وعلى أى أساس بنى توقعه بإمكان قيام هيكل بهذه الخدمة للرئيس الأمريكى ؟

ولكن الأهم من ذلك هو الوساطة التى طُلب إلى هيكل القيام بها ، عن طريق رسالة بعثها إليه الأمريكيون . ونص الرسالة ، كما كتبها هيكل بنفسه(١) ، هو :

« واتضح أنها عبارة عن اقتراح ، القصد منه أن أقوم أنا باستخدامه فى محاولة جديدة لمفاتحة السلطات فى طهران ، وكانوا يأملون أن أوافق على هذه الخطوة . وكانت الوثيقة غريبة بالفعل ولعل أفضل طريقة لإظهار مدى ابتعاد التفكير الأميركى عن الواقع هو أن أورد الوثيقة كما هى :

---

(٢) « مدافع آية الله » لهيكل ـــ الطبعة الثالثة ، دار الشروق (١٩٨٣) ص ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ .

« الفكرة هى أن يذهب هيكل إلى إيران ، ويقدم إلى بنى صدر طريقة تمكن الإيرانيين من استخدام كارثة عملية الإنقاذ ، لإطلاق سراح الرهائن ، وأن يضعوا نهاية لهذه القضية . كما يقوم هيكل بإقناعه أن مثل هذا العمل ، فرصة نادرة ليركب موجة قومية إسلامية لتدعيم مركزه — ويمكن تقديم نفس الفكرة إلى الخمينى باعتباره مشاركا فى نفس الرغبة للتخلص من المشكلة .

« ويمكن لهيكل أن يستفيد من النقاط التالية :

أ — إن نجاح الثورة الإيرانية أمر قد اتضح وتمت البرهنة عليه من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الإنقاذ الأمريكية ، فلقد بيَّن الله سبحانه وتعالى للعالم ، أنه مهما كان العدو جبارا ، فإن الحق فى جانب المظلومين وفى هذه الحالة ستتاح للجميع فرصة ليشهدوا التسامى الخلقى للجمهورية الإسلامية ولهذا :

ب — خدمت قضية الرهائن الغرض الذى كانت ترغب فيه إيران . فقد كانت بمثابة الأداة التى أظهرت للعالم ، وبشكل مثير ، مساوئ حكم الشاه ودعم الحكومة الأمريكية له . إن عجز الحكومة الأمريكية عن القيام بعملية إنقاذ لهو الشهادة الثانية والأخيرة على عدالة أخذ الرهائن . (وعلى سبيل المثال : أدى الفعل الإيرانى إلى رد فعل أمريكى نتج عن فشله تأكيد للرسالة التى كانت إيران تود أن تنقلها أساسا) لذا لم يعد هناك أى حاجة للرهائن .

جـ — سيتم الإفراج عن الرهائن ، لأن إيران لم تكن تنوى أبدا إلحاق الأذى بهم ، وهذه اللفتة ستظهر بشكل مثير وواضح مدى سماحة الإسلام ورحمته وليس هناك شعور بالكراهية تجاه الشعب الأمريكى ، وإنما ينصب الكره على الحكومة وحدها (فيطلق سراح الرهائن الآن ، وليظهر غباء الأمريكيين وعدم مهارتهم أكثر من ذى قبل ولتنقلهم الطائرات من تاباز نفسها أمام مندوبى الصحف ولتدون كل ملاحظاتهم الساخرة المستخفة بالولايات المتحدة إلخ ..) ولتظهر إيران والجمهورية الإسلامية بمظهر

المنتصر ذى الأخلاق السامية .

د ــ وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والأبطال القوميين ، فهم لم يلحقوا الأذى بأحد ، كما إنهم نفذوا تعاليم الإمام . وستقوم الحكومة بمكافأتهم بسخاء ، ويعترف الإمام بفضلهم بشكل خاص ، قد تكون هذه هى آخر فرصة لقوة المختطفين لترك مجمع السفارة دون حدوث ضرر لأحد فى إيران .

هـ ــ يجب أن تعلن إيران نفسها قرار الإفراج وكأنه حدث درامى يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهى خطوة اتخذها الخمينى بنفسه . وإجراءات الإفراج عن الرهائن ستمنح إيران فرصة هائلة للدعاية ، تغطى بها الخمسة أشهر البائسة بمسحة من الأخلاق الحميدة والرحمة ، وهكذا تجدد إيران صورة الإسلام ، وهذا شيء يسعد كافة المسلمين فى العالم . وتهاجم الحكومة الأمريكية مرة أخرى لعدائها للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة إيران مع الحكومة الأمريكية ولا يمثل أى نوع من المهادنة معها » .

انتهت الرسالة .

« ولقد تلقيت رسائل أخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن حسب معلوماتى التى كانت ترد من طهران ، كانت كل خطوط الاتصال مع الأمريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس . فلم يكن لدى الإيرانيين أى فكرة عن المفترض فيه أن يتحدث معهم ، ولا حتى عن تلك الإشارات التى كانوا يتلقونها من الأمريكيين وتعبر عن الموقف الأميركى الحقيقى » .

آمل أن تكون ، أيها القارئ ، قد قرأت هذه الصفحات المنقولة حرفيا بإمعان . فلم يكن ما تطلبه أمريكا هنا من هيكل مجرد وساطة ، بل إنهم اختاروه شخصيا للقيام بعملية خداع واستغفال لعقول الإيرانيين ، مستغلا مشاعرهم الإسلامية ، بحيث يتعامل معهم كما لو كانوا مجموعة من الهنود

الحمر البدائيين الذين يمكن الحصول على كل شيء منهم مقابل عقد من الخرز الملون . وبالطبع فقد تصور هيكل أنه يدافع عن نفسه حين قال إنه لم يقم بتنفيذ المهمة المطلوبة منه ، ولكن هذا ، فى الواقع ، ليس دفاعا على الإطلاق ، إذ أن المشكلة لا تكمن فى التنفيذ أو عدم التنفيذ ، وإنما فى الطلب ذاته .

المشكلة الكبرى هى أن الأمريكيين « كانوا يأملون أن يوافق على هذه الخطوة » . فعلى أى أساس جاءهم هذا الأمل ؟ كيف تصوروا أنه سيقبل الاشتراك فى عملية خداع الحكام الإيرانيين ومعاملتهم كأنهم أطفال ؟ من أين جاء كل هذا الأمل ، وكل هذا « العشم » ، فى هيكل ؟ وكيف توقعوا منه أن يتجاوز مهمة الوساطة ويقوم بتمثيلية خداعة على الإيرانيين باسم الإسلام ، أى أن يخاطبهم وفى نيته أن يغشهم ويستغل سذاجتهم لصالح أمريكا ؟ وما هى نوع الروابط التى تربطه بهم حتى يطلبوا منه شيئا كهذا ؟

إن هيكل يستطيع أن يقول ، بالطبع ، إنه ما دام قد نشر الرسالة فلا بد أنه كان حسن النية . ولكن الواقع أنه لا يدرك ما يمكن أن تكشفه رسالة كهذه عن الطريقة التى ينظر بها الأمريكيون إليه . فمن المستحيل أن تطلب أمريكا من إنسان عادى — مهما كانت مكانته — أن يعرض نفسه للأخطار من أجل أداء كل هذه الخدمات لصالحها . وحتى لو كانت أمريكا قد أساءت التقدير ، وتصورت خطأ أن هيكل يمكن أن يقوم بهذا كله لحسابها ، فإن لهذا الخطأ ذاته دلالته البالغة ، لأنهم لا يمكن أن يكشفوا أوراقهم على هذا النحو لأى شخص غير ملتصق بهم . ومن جهة أخرى فقد كان المفروض ، فى حالة خطأ أمريكا ، أن يرد عليهم هيكل بشدة ، لا معتذرا فقط ، بل مستنكرا هذا الطلب بكل قوة . كان المفروض أن يرد عليهم ردا شديد العنف ، يقول فيه ، مثلا : هل تتصورون أنكم تخاطبون شخصا يشتغل لحسابكم حتى تطلبوا

منى شيئا كهذا ؟ وكيف تتخيلون أننى سأقوم بعملية خداع واستخفاف بعقول أناس وضعوا ثقتهم فىّ ؟ ولكن هيكل لم يفعل ذلك ، والدليل على هذا هو أن كل ما انتقده على الأمريكيين ، فى تعليقه على رسالتهم ، هو « ابتعاد تفكيرهم عن الواقع » . والدليل الأهم على أنه لم يستنكر ، ولم يوقف الأمريكيين عند حدهم ، هو أنهم عادوا فبعثوا إليه برسائل أخرى .

إن هيكل لم يدرك النتائج الخطيرة للكلمات التى قالها ، وكل ما طاف بذهنه هو أنه كان فى هذه القصة رجلا مهما يسعى إليه وزير الخارجية الأمريكى ويختاره شخصيا للتوسط بين دولتين ، إحداهما أكبر وأقوى دولة فى العالم . وفى نشوة الإحساس بالسعادة الناتج عن الشعور بأهميته ، لم يتنبه إلى المعانى الواضحة التى يستطيع أى عقل على قدر ضئيل من الذكاء أن يستخلصها من روايته .

وفى ضوء هذه الاعترافات الخطيرة ، غير المقصودة ، التى أدلى بها هيكل ، ألا يشعر المرء بالإشفاق حقا على الإيرانيين الذين فتحوا له أبوابهم ، وأطلعوه على أخطر وثائق السفارة الأمريكية ، بعد أن خدعتهم شهرته المرتبطة بجمال عبد الناصر ، ثم خرج هو من الزيارة بكتاب تضمن كثيرا من السخرية من الإيرانيين ، وربما خرج بما هو أكثر من ذلك ؟

إننى ، إدراكا منى لحساسية هذا الموضوع عند هيكل ، حرصت على ألا أستخدم نوع الألفاظ الذى يغضبه . ولكن الأهم من ذلك أننى لم آت بشىء من عندى ، وكل ما فعلته هو أننى تركت هيكل يدين هيكل .

الفصل العاشر

من الذى هدم الهيكل ؟

ما نوع ردود الفعل التى يمكن توقعها إزاء بحث كهذا الذى كنت أقوم به طوال الفصول السابقة ؟ سأترك جانبا ردود الفعل الإيجابية الممكنة ، وأركز حديثى على ردود الفعل السلبية .

إن هناك فئة غير قليلة من القراء تفكر على النحو الآتى : ما دام هيكل قد أساء إلى السادات ، وما دام هذا الناقد (كاتب هذه السطور) قد استهدف كشف أخطاء هيكل ، إذن فنقده مفيد فى الانتقام من هيكل لصالح سياسة السادات .

وهناك فئة أخرى ، ربما كانت أكثر عددا ، تنظر إلى المسألة بالطريقة العكسية : بما أن هيكل قد فضح عهد السادات ، وهو عهد غير وطنى ، إذن فلا بد من الوقوف إلى جانبه ، أما من يهاجم هيكل فى الظروف الراهنة فإنه يضعف الجبهة المعادية للسادات ، بعد أن كانت قد انتعشت بظهور كتاب هيكل . وواضح أن الأساس الذى يقوم عليه هذا النوع من التفكير هو مبدأ : عدو عدوى صديقى (عدوهم السادات وهيكل عدوه) . وتبعا لهذا المبدأ يكون كاتب هذه السطور ، فى انتقاده لهيكل ، هو فى الواقع « عدو عدو عدوهم » ، أى عدو صديقهم ، أى عدوهم !

ومع اعتذارى للقارئ عن هذه الألغاز اللفظية الأخيرة ، فإنى أجد فى هاتين الطريقتين فى الفهم لب الخطأ الذى أحاول منذ البداية أن أقنع القارئ

بألا يقع فيه . فموقفى ، كما قلت مرارا ، منصب على نقد جو فكرى عام ، وأسلوب كامل فى النظر إلى عملية الحكم ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وطريقة اتخاذ القرارات الحاسمة . وهذا الأسلوب أوسع نطاقا من أى فرد تحدثت عنه فى هذا الموضوع أو ذاك ، بحيث لا يمثل هيكل وكتابه الأخير إلا حالة صارخة ، حادة ، قريبة العهد ، من حالات ظاهرة أقدم وأوسع انتشارا وأقوى رسوخا بكثير .

وإذا كان الساداتيون ،الذين ينتمي إليهم أصحاب الرأى الأول ، قد قرأوا ما كتبت بإمعان ، فسوف يدركون أن نقدى للعهد الساداتى ربما كان أشد حدة من نقد هيكل ، لأننى أرجعت كثيرا من الظواهر إلى جذورها الحقيقية ، ومن ثم فإن أية محاولة يبذلونها للإفادة مما كتبت هى ، كما قلت فى مقالى الأول ، مرفوضة من أساسها .

أما أصحاب الرأى الثانى ، الذى يضم عناصر من الفئات الناصرية واليسارية والقومية ، فإنهم يرتكبون خطأ جسيما حين يستعينون ، من أجل دعم موقفهم ، بشخصيات مثل هيكل . إن الكثيرين منهم ، بالطبع ، يصفون موقفى بأنه نوع من المثالية التى تفتقر إلى الحس العملى : إنه بحث عن الصواب المطلق أو الخطأ المطلق ، لا يعرف كيف ينتهز الفرص السانحة ويستفيد من أى عنصر — بصرف النظر عن طبيعة هذا العنصر فى ذاته — من أجل خدمة قضيته . هذا رد أتوقعه من الكثيرين ، بل أتوقع ما هو أشد منه : فمن هؤلاء من سيهاجمنى بعنف ، مؤكدا أن هيكل الآن يخوض معركة ضد المؤسسة الساداتية كلها ، ولا بد من تأييده ومساندته ، لا إضعافه ومحاربته .

ولكن هذا المنطق ، فى رأيى ، مرفوض من أساسه . فالمسألة ليست على الإطلاق مثالية مفرطة فى الابتعاد عن الواقع ، وإنما هى — على عكس ذلك — موقف واقعى وعملى بكل معانى الكلمة . ذلك لأننا لن نستطيع أن نفهم

العوامل المؤدية إلى السقوط الذى وصلنا إليه ، فى كافة جوانب حياتنا ، إلا إذا حللنا بدقة أساليب التفكير والممارسة عند أولئك الذين تحكموا فى مصائرنا طوال عشرات السنين ، وانتقدنا هذه الأساليب دون أية مهادنة . وحالة هيكل تقدم لنا نموذجا بارزا لهذه الأساليب ، وإن كان يظل رغم كل شيء مجرد نموذج ، لا يهمنا إلا بقدر ما يدل على المناخ السياسى والفكرى العام الذى كان ينتمى إليه .

والواقع أننى لا أجد ، من منظورى الخاص ، أية فائدة ترجى من التحالف مع شخصيات اعتادت التقلب مع عهود الحكم ، بحيث لا ندرى ، إذا كانت تتخذ اليوم خطا وطنيا (سنقدم له تفسيرا فيما بعد) ، أى خط ستتخذه غدا . فإذا أضيفت إلى ذلك حقيقة أهم من هذه ، وهى أن هيكل أسهم بدور أساسى فى إرساء دعائم الاتجاهات التى ينتقدها اليوم على السادات ، عندئذ يبدو التحالف معه أمرا محفوفا بالخطر ، ويبدو انقلابه الأخير على السادات موقفا لا علاقة له بالمبادئ السياسية ، وإنما هو فى حقيقته ، ومهما أنكر هيكل ، انتقام شخصى يلبس رداء الوطنية .

وفى غمرة الغضب الذى اجتاح هيكل ، خلال فترة اعتقاله القصيرة الأمد ، نسى أشياء كثيرة ، ولم يتذكر إلا أنه يريد أن ينتقم ، وكان لديه بالطبع مخزون المعلومات الهائل الذى يضمن له انتقاما مدويا . وهكذا تحدث هيكل عن أخطاء السادات ، مدعمة بالوثائق التى تفضح أشياء كثيرة وخطيرة ، كما لو كان مشاهدا محايدا ، ونسى الدور الخاص الذى لعبه فى هذه الأخطاء . بل إنه حين تدفق فى سرد المعلومات من مخزونه الكبير ، نسى أن الكثير مما قاله له دلالات عكسية ، ويأتى بنتائج سلبية على الجميع ، سواء عليه هو ، أو على الحكام الذين عاش فى عهدهم . ومرت عليه أشياء خطيرة انزلق إليها دون أن يدرك معانيها ، حتى ليشعر المرء — كما سنرى فيما بعد — أن

غضبه قد سد عليه منافذ التفكير .

ولو كان هيكل متسقا مع نفسه ، لتمالك غضبه وبدأ كتابه بانتقاد نفسه . كان من واجبه تجاه ذاته ، وتجاه وطنه ، أن يقول : « لقد أيقظتنى فترة السجن من غفوة طويلة .. كنت على خطأ فى كثير من مواقفى طوال الأعوام الثلاثين الماضية ، وكان أكبر أخطائى مساندتى القوية للسادات ودعمى لحكمه ، وهأنذا أكفر عن أخطائى .. » لو كان هيكل قد بدأ بكلمات كهذه ، وصاغ كتابه فى هذا الإطار ، لما تعرض لكلمة نقد واحدة منى أو من غيرى ، بل لصفقنا له جميعا ، إذ أنه كان سيقدم إلينا عندئذ عملا رائعا ، يكشف عن الحقائق المخفية ، ويلقى — بموضوعية — أضواء باهرة على أخطر مرحلة فى التاريخ العربى المعاصر .

ولكن هذه أمنية يستحيل أن تتحقق : إذ كيف تتنزل الآلهة من عليائها وتعترف بأخطائها ؟ إن هيكل يرى نفسه أرفع حتى من الرد على منتقديه ، فكيف نتوقع منه نقدا ذاتيا شاملا ؟ على رسله إذن ، وليتحمل نتيجة موقفه .

لقد كانت لدى هيكل حاسة سياسية مرهفة جعلته يتخذ حتى النهاية موقف المحامى عن عبد الناصر ، وبدرجة أقل ، عن عصر عبد الناصر ، رغم أنه شارك بدور رئيسى فى بذل الجهد الضخم الذى أدى إلى القضاء على أهم مقومات العهد الناصرى فى ١٥ مايو ، وكان من دعامات التحول الحاسم الذى كان لا بد أن يفضى فى النهاية إلى انهيار سياسة الحياد الإيجابى ، وإلى الانحياز لأمريكا ، بكل ما يعنيه ذلك من انضمام إلى صف أعداء الشعوب ومكافحى التحرر الوطنى ، ومن تصالح وتطبيع مع إسرائيل ، ومن سيطرة للطبقات الطفيلية والبنوك الأجنبية . وإذا كان هيكل قد انتقد هذه النتائج كلها بشدة فى الآونة الأخيرة ، فإن دعمه الحاسم للسادات ، الذى كان هيكل يعرف جيدا ميوله واتجاهاته واتصالاته ، كان لا بد أن يؤدى إلى نتائج

كهذه فى المدى البعيد .

ولقد أتاحت هذه الحاسة السياسية المرهفة ذاتها لهيكل أن يقفز من مركب السادات فى الوقت المناسب ، ويدخل من أجل ذلك السجن فترة قصيرة . وكان دخوله السجن فى الواقع أكبر « ضربة حظ » نالها فى السنوات الأخيرة . فعندما أصدر « خريف الغضب » ، استطاع أن يكتسب لنفسه تأييد كل الساخطين على عصر الانفتاح ولصوص التموين والارتماء فى أحضان بيجن وتوصيل ماء النيل إلى القدس وبيع آثار مصر ومواقعها التاريخية .. تحول هذا كله إلى رصيد لصالح هيكل ، واعترف هو نفسه بذلك حين قال فى الفصل الأول من كتابه ، معلقا على مهاجمة السادات له : « حين يجعل رئيس الدولة من أحد مواطنيه هدفا دائما لهجماته ، فهو بذلك يرفع من قدره ولا ينتقص منه . وبالتالى فلعلى لا أتجاوز ذلك إذا قلت إننى على نحو ما مدين للرئيس السادات بما أضافه — دون أن يقصد — إلى قيمتى فى الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء » . وبصرف النظر عما يمكن ملاحظته بسهولة من أن تضخيم الذات واضح فى هذا الكلام ، فإن الحقيقة الواقعة هى أن هيكل قد أصبح فى نظر الكثيرين « بطلا » وطنيا ، وأخذ الوطنيون الشرفاء يتبنون قضيته ، إما عن كراهية للسادات تحتم التصفيق بلا تفكير لكل من يهاجمه ، وإما عن عجز عن الربط بين حلقات التاريخ . وفى المقابل ، فإن خصومه من الساداتيين أخذوا يهاجمونه بعنف ، مما جلب له مزيدا من الشعبية . وحين اتخذت الحكومة بعض الإجراءات القمعية ، بإصدار تشريع استثنائى آخر يمنع أى « مسئول » من الإفشاء بأسرار كان مطلعا عليها ، تحول هيكل ، الذى طالما برر الحكم الفردى وصاغ له النظريات البارعة ، إلى شهيد لحرية الرأى والديمقراطية المهدرة .

إن قضية هيكل مع الحرية والديمقراطية قصة طويلة ، ليس هنا مجال الكتابة

عنها ، وكل ما نود أن نفعله هو أن نركز انتباه القارئ على جوانب معينة من الانتقادات التى وجهها ، مؤخرا ، إلى السادات ، والتى وقف فيها يدافع بقوة عن هذه المبادئ السامية ، ثم نسأل أنفسنا : هل كان هيكل ، فى انتقاداته الأخيرة ، يدين السادات وحده ، أم يدين نفسه أيضا ، ويدين كل المناخ السياسى الذى كان يعمل فيه ؟

يتحدث هيكل فى الفصل الخامس من كتابه عن الهدايا التى كان السادات يتلقاها فيقول : « وخلال سنوات عمله فى المؤتمر الإسلامى كان السادات يتلقى الكثير من الهدايا فى عالم يؤمن بالهدايا كوسيلة من وسائل توثيق الصلات » . فإذا تساءلنا : أى عالم كان يقصد ؟ أتانا الجواب سريعا : « لكن الحق يقال إنه كان كريما فى تقديم الهدايا قدر كرم الآخرين فى تقديمها له . لقد قدم أنور السادات فى تلك الفترة أكثر من سيارة « كاديلاك » كهدايا لعبد الحكيم عامر » . إذن فالمقصود عالم أقطاب ثورة ٢٣ يوليو ، أولئك الثوار الذين استهدفوا تطهير مصر من « فساد » الأحزاب القديمة ، والذين يهدى أحدهم إلى الآخر بعضا مما أنعم الله به عليه ، هو مجرد « سيارات » كاديلاك تقدم إلى الرجل الثانى بين الثوريين ، الذى وصفه هيكل فى الموضع نفسه بأنه « كان فى نفس الوقت أقرب أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى قلب جمال عبد الناصر » .

حسنا ، إن مثل هذه الأشياء تحدث فى أحسن « الثورات » ، ولكن ألم تكن هذه الواقعة تستحق من هيكل تعليقا على النظام الذى سمح بهذا ، وجعل من الهدايا وسيلة لتوثيق الصلات ؟ هل هذه هى الدروس التى يقدمها فلاسفة الثورة للأجيال الجديدة ؟

ينتقد هيكل العهد الساداتى على كثير من ممارساته اللاديمقراطية ، وهو قطعا على حق فى هذا النقد ، ولكنه لا يقدم إشارة واحدة إلى الإطار التاريخى

الذى ظهرت فى ظله هذه الممارسات ، ويصورها كما لو كانت قد ابتدعت فى عهد السادات .

فهو يعيب على السادات إصداره تشريعا يمنع الذين « أفسدوا الحياة السياسية قبل الثورة أو بعدها » من النشاط السياسى ، وينسى أن تشريعات كهذه كانت تصدر من آن لآخر طوال عهد الثورة ، كان أولها ما صدر فى عام ١٩٥٣ تمهيدا لحل الأحزاب . وهكذا فإن تشريع السادات حلقة فى سلسلة طويلة من الإجراءات القمعية ضد التجربة الحزبية فى مصر ، ولم يكن السادات فى إجرائه هذا إلا ابنا مخلصا للتراث الذى تربى سياسيا فى ظله . وما دام هيكل قد وجد فى التشريع الساداتى إجراء تعسفيا — وهو بالفعل كذلك — فلماذا سكت عن الإجراءات المماثلة السابقة ، بل لماذا أيدها ودعمها بتنظيراته ؟ هنا نرى هيكل واحدا ضمن سلسلة طويلة من رجال الثورة الذين كانوا يؤيدون الدكتاتورية وهم فى الحكم ، ثم يتحولون بقدرة قادر إلى ديمقراطيين متحمسين عندما يتم استبعادهم ، من أمثال البغدادى وكمال الدين حسين وهويدى ، إلخ ...

وهو يسخر من تلاعب السادات فى الدستور ، وتعديل المادة الخاصة برئاسة الجمهورية ، بحيث تتجدد مدة الرئاسة إلى ما لا نهاية .. هل كانت هذه هى المرة الأولى التى حدث فيها ذلك ؟

بل إنه يلاحظ فى الفصول الأخيرة ، عن حق ، أن السادات كان لديه دستور لا بأس به ، ولكنه لم يكن يتقيد به ... ألم تكن هذه فرصة لنقد مبدأ التلاعب بالدستور بوجه عام ، ولإعطاء القارئ درسا فى أهمية الدساتير ووجوب احترامها فى كل العهود ؟

وحين يسخر هيكل من استفتاءات السادات ، التى كانت نتائجها مضمونة مقدما ، والتى كان يلجأ إليها لإضفاء صبغة قانونية زائفة على

إجراءات أو تشريعات مخالفة بطبيعتها لروح القانون والدستور — فهل كان هيكل يهاجم مبدأ الاستفتاء ذاته ، أم كان يهاجمه فقط عندما طبقه خصمه السياسى ؟ ألم يكن الاستفتاء مبدأ معمولا به قبل عهد السادات بوقت غير قصير ؟

ومما يلفت النظر أن هيكل قد انتقد بشدة ، فى كتابه الأخير ، طبيعة التنظيمات السياسية غير الشعبية التى تخلقها السلطة لدعم مركزها ، ويشير إلى عيوبها بقوله : « لم تكن لدى حزب مصر — على سبيل المثال — ولا الحزب الوطنى بعده ، من القوة السياسية إلا ما أسبغه النظام بالسلطة عليهم ليكونوا واجهات يتستر وراءها الفعل الحقيقى . وكان أكثر من نصف أعضاء مجلس الشعب من هؤلاء الذين غيروا آراءهم مع تغيير الحكومة لسياساتها . كانوا اشتراكيين فى الوقت الذى كان من الحكمة فيه أن يكونوا أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى العربى . وأصبحوا رأسماليين عندما انفتحت الأبواب لرأس المال الأجنبى . وكانوا أصدقاء للاتحاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا بسرعة — حين تغيرت الظروف — إلى الصداقة مع الولايات المتحدة . وكانوا دعاة الحرب مع إسرائيل ، وبعد المبادرة أصبحوا كلهم من دعاة السلام » .

هذا تشخيص سليم بغير شك ، ولكن هل ينطبق على أعضاء حزب مصر والحزب الوطنى وحدهم ؟ ألم ينتقل عدد كبير من الأعضاء قبل ذلك ، من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى إلى الاتحاد الاشتراكى ، رغم اختلاف المبادىء والأسس فى كل حالة ؟ ألم يكونوا بدورهم رأسماليين فى البداية ، ثم أعلنوا ولاءهم للاشتراكية حين أصبحت سياسة رسمية ؟ إن جوهر نقد هيكل كان ينبغى أن ينصب على أسلوب الحكم الذى يفرض تنظيما شعبيا مقلوبا ، يسير نشاطه من القمة إلى القاعدة ، على حين أن التنظيمات ، لكى تكون شعبية

بحق ، لا بد لها من أن تبدأ بالقاعدة وتنقل رغباتها ومطالبها إلى القمة . ومثل هذا الأسلوب لم يبدأ فجأة فى عهد السادات ، بل كانت له مقدمات طويله .

أما الحديث عن أولئك الذين كانوا أصدقاء للاتحاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا عندما تغيرت الظروف إلى الصداقة مع الأمريكان ، فإنه حديث جرىء حقا ، وخاصة حين يصدر عن هيكل ، وأرجح أنه كتب هذا الجزء وهو جالس أمام المرآة !

وحين وصف هيكل عملية اعتقاله وصفا دراميا مفصلا ، كان يتحدث فى الواقع عن نقطة تحول هامة فى حياته ، جعلته يتخذ قراره بأن يتكلم . والأمر المذهل حقا هو أن هذا الاعتقال المخفف جدا ، سواء من حيث مدته أو أسلوب معاملته فى السجن ، لم يكن مما يمكن مقارنته على الإطلاق بما حدث لألوف الأشخاص من قبل ، ممن ذاقوا أشد الأهوال لمدد أطول كثيرا ، وفى ظروف أصعب ألف مرة . ومع ذلك فإن هيكل يصور حادثة اعتقاله كما لو كانت شيئا فريدا فى نوعه ، ولم يحاول أن يعالجها ، ولو فى سطر واحد ، بوصفها ظاهرة عامة ونتيجة ضرورية لأسلوب معين فى الحكم .

وواقع الأمر أن هيكل لم ينطق بحرف حين كانت الاعتقالات تحدث جزافا ، وتنتهى فى حالات معينة بعاهات مستديمة للمعتقلين ، وربما بموتهم . لم يحركه امتهان كرامة الإنسان أو لجوء فئة معروفة من السجانين إلى ممارسات غير آدمية ، وكل ما دافع به عن نفسه أنه هو الذى صاغ عبارة « زوار الفجر » ... ومتى ؟ عندما كان الانهيار قد حدث ، وكان النظام فى حاجة إلى ما يهدئ مشاعر الشعب المجروح بالهزيمة عن طريق ممارسة محدودة للنقد الذاتى ، أما فى ذروة أيام القمع فلم يحرك ساكنا .

ويقدم إلينا هيكل أوصافا وتفاصيل طريفة عن إحساس السادات بالعظمة وبأن الآخرين إلى جوراه « أقزام » ، وعن عزلته المتزايدة وتناقص عدد

مستشاريه يوما بعد يوم ، ولكنه يصف هذه الظاهرة كما لو كانت عيبا شخصيا فى السادات . ولو تعمق فى الأمر قليلا لأدرك أن أسلوب الحكم الفردى لا بد أن يؤدى إلى هذا النوع من جنون العظمة . فحين يمسك فرد واحد ، لمدة سنوات عديدة ، بسلطات هائلة فى يديه ، وحين يسمع كلمات الموافقة والطاعة من كل المحيطين به ، وحين تملأ صوره وأخباره وكلماته أجهزة الإعلام صباح مساء ، وحين تتحول أية رغبة له إلى واقع فعلى بمجرد أن ينطق بها ، وتتقرر المصائر والسياسات بكلمات من قلمه ... حين يحدث ذلك كله لفرد واحد ، لا بد أن ينتهى تكوينه النفسى إلى عدم التوازن . وكم ألفت من كتب عن هذه الظاهرة فى حالة عدد كبير من الحكام الفرديين . ومع ذلك فإن هيكل يقدمها إلينا كما لو كانت تعبيرا عن اختلال فى شخص السادات كفرد ، ويتجاهل الجانب العام للظاهرة ، الذى يجعلها نتيجة ضرورية لانفراد إنسان واحد بعدد هائل من السلطات .

إن القضية ليست قضية السادات وحده ، ولا عبد الناصر وحده ، بل قضية أسلوب الحكم الذى لا يستند إلى تمثيل شعبى حقيقى — ذلك الأسلوب الذى أدركه هيكل فى حالة السادات ، ولم يدركه قبل ذلك . والأمر المؤسف هو أنه كان واعيا به ، إذ كان هو الذى نصح السادات ، بعد انتصاره فى حركة التصحيح ، بأن يحدث الناس فى خطابه إلى مجلس الأمة عن قضية الديمقراطية ، لأنها هى « القضية التى تهم الناس مباشرة فى هذه الظروف . إن الناس يريدون أن يسمعوه وهو يؤكد لهم ضمانات حرياتهم . لقد أفلتوا بالكاد من شبح دكتاتورية كان يمكن أن تصل فى تجاوزاتها إلى حد بعيد »[١] . إذن فقد كان هيكل يعلم أن الناس تواقة إلى الديمقراطية ، وأن

---

(١) انظر الفصل الخامس من « خريف الغضب » .

الجناح الذى هزم ، والذى هو الملتصق بعبد الناصر والمنفذ لسياسته ، كان دكتاتوريا ، فهل حاول فى ذلك الحين أن يدافع عن المبدأ الذى تحول الآن إلى داعية له ، أم أن الديمقراطية لا تجد من ينادى بها إلا حين يكون الحاكم فى موقع الضعف ، بينما تسحق بالأقدام بمجرد إحساسه بالقوة ؟

إن هيكل على العكس من ذلك ، طلع علينا — خلال فترات الشعور بالقوة — بنظرية « الديمقراطية بالموافقة » ، ويعنى بها أن يكون الحاكم على وعى بمطالب الجماهير وأمانيها ، فيحققها لها ، وعندئذ لا بد أن يكون تصرفه ديمقراطيا ، لأن الجماهير ستوافق حتما عليه ، ولأنه تعبير صادق عما تريده الجماهير . ويدافع هيكل ، فى حديث قريب ، عن هذه الفكرة ، مؤكدا أنه لم يقل بها إلا بعد أن اتخذت القرارات الكبرى المعبرة عن موافقة الشعب ، كتأميم قناة السويس والتطبيق الاشتراكى وبناء السد العالى ، إلخ ... ولم يدرك هيكل أنه حتى هذه القرارات الكبرى ينبغى أن تستند قبل اتخاذها لا بعده ، إلى إرادة شعبية ، أما لو اقتصر الأمر على اتخاذها من أعلى ، فستظل معرضة للخطر . وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد الناصرى : فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة ، ولكنها لم تنبثق عن الشعب وإنما أتت من أعلى ، وظلت معتمدة على بقاء الزعيم الذى أوجدها ، فلما اختفى ، انهارت بعده وكأنها بيت من ورق .

وهكذا كانت نظرية « الديمقراطية بالموافقة » بدعة هيكلية ينكرها أى حس ديمقراطى سليم . بل إننا لا نعدو الصواب إذا قلنا إنها سلاح ذو حدين : إذ أن السادات كان يؤكد ، من جانبه : أن « ٩٩,٩٪ من شعبى يؤيدنى فى زيارة القدس ، وفى الصلح والتطبيع مع إسرائيل ، ولا يعارضنى فى ذلك إلا مجموعة من الأرذال !.. » أترون إلى أين يمكن أن تؤدى بالشعب أفكار خطيرة كالديمقراطية بالموافقة ؟

إن الحكم الفردى ، حتى لو بلغت إنجازاته عنان السماء ، يظل معرضا للوقوع على الدوام فى كوارث . وما كانت كارثة ١٩٦٧ ــ التى لم يعرض لها هيكل فى كتابه إلا بطريقة سريعة وفى مساحة تقل بكثير عما خصصه للحديث عن مسكن السادات أو زوجات أبيه ــ ما كانت فى حجمها وفى فداحتها إلا نتاجا للحكم الفردى . والواقع أن مشكلة هذا الأسلوب فى الحكم هى أن خطأ الفرد فيه يمتد إلى أمته بأسرها ، على حين أن تأثير الخطأ فى الحكم الديمقراطى يكون أضيق نطاقا بكثير ، فضلا عن أن احتمالاته أقل ، وإمكانية إصلاحه أكبر . ومن هذا النوع كان خطأ عبد الناصر فى التقدير عام ١٩٦٧ ، وخطأ السادات فى أسلوب التفاوض بعد حرب ١٩٧٣ ، وزيارته للقدس عام ١٩٧٧ . إنها كلها قرارات فردية لحاكم فرد ، معرض كسائر البشر للخطأ ، ولكن خطأه يتحول ، بسبب طبيعة حكمه ، إلى كارثة .

وتلك كلها مسائل لم يحاول هيكل أن يتطرق لها ، بل عرض فى الفصل الأخير من كتابه لأخطاء السادات كشخص ، ولم يتناول أسلوب الحكم الذى كان السادات أحد مظاهره . ومن هنا شاع التفاؤل فى صفحات الكتاب الأخيرة ، ما دامت الشخصية « الشريرة » قد اختفت ، وحلت محلها شخصية ذات مزاج مختلف .

* * *

والآن فقد كنت طوال حديثى السابق أتحدث بلسان المفكر السياسى أو الاجتماعى ، ومع ذلك فإنى لا أستطيع أن أقاوم إغراء العودة ، فى نهاية هذا الحديث الطويل ، إلى ممارسة مهنتى الأصلية : الفلسفة ! فحين تأملت مواقف هيكل وأساليب تفكيره ، توصلت إلى مجموعة من النقاط أستطيع أن أطلق عليها اسم « مبادئ الفلسفة الهيكلية » . فما هى هذه المبادئ ؟

المبدأ الأول : فى البدء كان النسيان :

إن المتأمل لتقلبات هيكل وتغير مواقفه يستطيع أن يدرك بوضوح أن

النسيان أساس ضرورى يعتمد عليه هذا النوع من المفكرين من أجل إقناع الناس بآرائهم . ولقد ضربنا أمثلة واضحة ، بل صارخة ، لتحولات جذرية طرأت على مواقف هيكل من القضايا المصيرية للأمة العربية فى ثلاث سنوات متعاقبة : ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ ، بحيث بدأ هذه السنوات بموقف راديكالى متشدد ، وانتهى ــ بعد تدرج مرسوم بعناية ــ إلى موقف شديد الاعتدال ، وانعكس اتجاه تأييده المعلن ، من الاتحاد السوفيتى إلى الولايات المتحدة ، واختلف تصوره للحرب المنتظرة ، إلخ ... مثل هذه التحولات الجذرية لا يمكن أن يجرؤ أحد على تقديمها إلى الناس فى سنوات متعاقبة كهذه إلا إذا كان واثقا من أن الناس سرعان ما ينسون . وإنك إذا كررت موقفك الجديد وألححت عليه بما فيه الكفاية ، فلن يعود إلى ذهنهم سواه ، ولن يحاسبك أحد على ما قلت من قبل .

إنها عقلية تحتقر ذكاء الجماهير وتفترض أنها تعيش ، وتفكر ، يوما بيوم ، وتتصور أن كل ما يحتاج إليه السياسى هو أن يكرر الأكذوبة لكى تصبح حقيقة . ولو تصور أحد أن الكاتب نفسه هو الذى ينسى مواقفه السابقة ، وليس الجمهور ، لكان فى ذلك مخطئا أشد الخطأ . فمثل هؤلاء الكتاب ، ومعهم الحكام الذين يعملون هم لحسابهم ، يتذكرون كل شىء ، ولكنهم يؤمنون بأنهم هم وحدهم الأذكياء ، ويسلمون تسليما كاملا بغباء الآخرين . وفى ضوء هذا المبدأ نستطيع أن نفسر جرأة هيكل على اتخاذ عدد كبير من المواقف التى كانت متعارضة فيما بينها تعارضا شديدا . إذ بدأ برفض التجربة الحزبية ، وأيد عبد الناصر بكل قوة ولم يقل شيئا عن ممارساته القمعية ، ثم شارك فى تحطيم أقرب أعوان عبد الناصر ، ومهد الطريق بكل ما يملك من قوة لعهد هدم كل الأسس التى قامت عليها سياسة عبد الناصر . وساند حياد عبد الناصر الإيجابى ،وتوجهه بالتالى نحو السوفيت ، ثم توجه

السادات نحو أمريكا ، ثم عاد أخيرا يتباكى على أيام التوازن الاستراتيجى بين السوفيت والأمريكان . ومشى مهللا ومصفقا فى جنازة الديمقراطية فى النصف الأول من الخمسينات ، وشارك فى تحديد وتبرير الاتجاهات الرئيسية للحكم الفردى ، ثم بكى لوعة على الديمقراطية الضائعة فى آخر عهد السادات . ورفع السادات فى أول عهده إلى عنان السماء ، ثم اتضح لنا أخيرا أنه كان يعرف عن طفولة السادات وشبابه وكهولته معلومات مشينة مخجلة ..

أكان فى استطاعة أى إنسان أن يتقلب بين هذه المواقف لو لم يكن يرتكز على مبدأ أساسى ، هو إن الإنسان حيوان ناسٍ ، وأن فقدان الذاكرة صفة مشتركة بين جميع البشر ، وأن عقول الناس تعمل يوما بيوم ، ولا تربط الماضى بالحاضر ، أو الأمس باليوم ، وإنه هو وحده الذكى ، « الفهلوى » ، الذى يستطيع أن يغير مواقفه دون أن ينتبه لذلك أحد ؟

المبدأ الثانى : ديمقراطية « أنا وحدى » :

فى حديث قريب العهد لهيكل(١) ، يتحدث ببطولة عن موقف حازم وقفه ضد وزير طالبه بأن يعرض مقالاته على الرقابة قبل ثلاثة أيام من نشرها ، فرفض هيكل بشدة ، وأرسل إليه يقول : « إننى لا أستطيع أن أكتب وفى ضميرى أن ورائى من سوف يجرى بقلمه على ما أكتب » ... ثم يقول : « إننى لم أكتب بانتظام ، وتحت عنوان : بصراحة ، إلا بناء على اتفاق مع الرئيس عبد الناصر ألا يخضع شىء مما أكتبه للرقابة » .

موقف رائع ، بطولى ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك فإن دلالات هذا الموقف محزنة ومؤسفة ، والمؤلم حقا أن هيكل يتحدث عن هذا الموقف فى

---

(١) حديث مع صلاح عيسى الأهالى ، ١٩٨٢/٦/١ .

معرض التفاخر ، ودون أن يلمح من ورائه شيئا آخر . إن هيكل هنا يجعل نفسه فئة قائمة بذاتها ، فئة مستثناة . فجميع الكتّاب الآخرين يخضعون للرقابة ، أما هو فقد اتفق مع عبد الناصر على أن يكتب بلا رقيب . وأعجب ما فى الأمر أنه على وعى بالاختناق الذى يصيب الكاتب من جراء الرقابة ، ويدرك بوضوح كيف أن قلم الرقيب يشل ضمير الكاتب ، ومع ذلك فإنه لم يحاول أن يعالج القضية بالنسبة إلى الجميع،أو يكتب إلى المسئولين منتقدا « مبدأ » الرقابة ، وإنما كتب يقول : لا بد أن أنال حريتى .. أنا وحدى ! وتكتمل المأساة حين يصور هذا الموقف كما لو كان بطولة عظيمة ، وتنشره الصحيفة المعارضة دون أن تعلق عليه أو تستخلص دلالاته ..

ولقد أثبت هيكل فى مواقف أخرى كثيرة أنه يقف بحزم ضد التصرفات الاستبدادية عندما تمسه شخصيا ، أو تمس المقربين منه ، ويتمسك « بالإعفاء الشخصى » من تجاوزات الحكام ، ولكنه لا يحاول الدفاع عن « المبدأ » نفسه ، أو أن « يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » ، كما تقول النصيحة المشهورة . فحقوق الآخرين لا أهمية لها ما دام حقه الخاص مكفولا ، وإذا حلت مشكلته الشخصية ، مع أجهزة قمع الحريات ، فإن كل شىء يصبح على ما يرام ... هذا ، فى نظر هيكل ، هو الوضع الطبيعى ، أما ما يتجاوز ذلك فلا يهمه فى شىء .

هكذا تصرف هيكل فى واقعة أخرى ورد ذكرها فى مقال سابق ، هى واقعة اعتقال أجهزة عبد الناصر لزميل له فى « الأهرام » ، فقد ثار ثورة فردية ، لأن الموضوع مس كرامته وسلامة المقربين منه ، أما المبدأ العام ، مبدأ عدم جواز اعتقال البشر بلا سبب ، وبلا محاكمة ، فلم يتطرق إليه من قريب أو بعيد .

ومثل هذا ينطبق على موقفه من اعتقاله فى آخر أيام السادات : فقد تحدث

عن « محنته » الشخصية ولم يذكره السجن بألوف الضحايا الذين سجنوا قبله فى «جرائم» الرأى أو العقيدة ، فلم يقل كلمة واحدة عن مساوئ الاعتقال بوجه عام ، ولم يسهم برأى واحد من أجل ضمان الحريات الشخصية للجميع على حد سواء .

وعلى العكس من ذلك ، فإن هيكل اكتسب جزءا كبيرا من مجده بفضل هذه الديمقراطية التى كان يتمتع بها وحده ، فى الوقت الذى يختنق فيه الآخرون . وكم من آراء كان يعرضها ، طوال الوقت الذى كان فيه هو وحده المتحرر من الرقابة ، كان من الممكن نقدها وهدمها بسهولة تامة ، لو أتيحت فرصة مماثلة للكتّاب المعارضين ، وكم من « نظرية » جادت بها قريحته ، أو « تبرير » من نتاج عبقريته ، كان من الممكن إثبات تفاهته بيسر لو كان الناس قادرين على المناقشة الحرة . غير أنه ظل وحده فى الميدان ، مستمتعا بانتصاره على خصم مغلول الأيدى ، وظل يغزو عقول الناس صباح كل جمعة ، دون منافس أو معترض . والحق أن أى مفكر حقيقى يستحيل أن يقبل لنفسه هذا الاحتكار الفكرى ، أو أن يخطو خطوة واحدة فى حلبة هذا الصراع غير المتكافئ : فهو لا يرضى لنفسه بأن يعلو صوته بينما الأصوات الأخرى مكتومة ، أو بأن يتفلسف شاهرا سيفه على أفواه مكممة وألسنة مربوطة . ومجرد قبول هيكل بهذا الوضع ، وإصراره على أن يحقق لنفسه ، هو وحده ، مثل هذه الحقوق الديمقراطية ، يدل على أنه فى صميمه بعيد كل البعد عن الديمقراطية .

أيريد القارئ مثلا آخر ، قبل أن ننتقل إلى النقطة التالية ؟ إن هيكل يشير ، فى الفصل الخامس ، وفى معرض التفاخر كما هى العادة ، إلى أن عبد الناصر كان يبدأ دائما بسؤاله عن رأيه فى الموضوع الذى يناقش ، لأنه كان يتكلم بغير حرج ، « وكان يشك فى أن بعض الآخرين عادة يحومون حول الموضوع

حتى يتعرفوا على رأيه (رأى عبد الناصر) فيه ، ثم يسبقوه إلى ما يتصورون أنه يريده » .

هذه هى النتيجة المأساوية للدكتاتورية : الخوف ، النفاق ، تملق الزعيم والاستجابة لرغباته بدلا من تحقيق مصلحة المجتمع ، الامتناع عن المعارضة — وفى مقابل ذلك ، شجاعة المتكلم الأوحد ، الذى يستطيع هو وحده أن يتكلم « بغير حرج » . هل هذا أسلوب فى الحكم يمكن أن يقيم ثورة أو يبنى مستقبلا أو يكوِّن رجالا ؟

ومع ذلك فإن الموضوع يمر على هيكل ، كما هى العادة ، دون أن يتنبه إلى أن ما يعتقد أنه سبب للفخر ، هو فى الحقيقة أمر مؤسف ومخجل . فهل من تعليل لعدم التنبه الدائم هذا ؟ إنه بالقطع ليس نقصا فى القدرة على الفهم والتحليل ، وإنما هو ، ببساطة ، اعتياد على العيش فى جو الحكم الفردى والاستمتاع بمزاياه الشخصية ، يؤدى فى النهاية إلى أن تصبح أكثر جوانب السلوك بشاعة أمورا عادية ، مألوفة ، ليس فيها أى خطأ ...

المبدأ الثالث : الوطنية بأثر رجعى :

أسهل أنواع الكفاح وأقلها تكلفة هو أن تكافح بعد فوات الأوان ، بينما تظل متفرجا ، أو تتواطأ ، عندما تكون الأحداث ساخنة ، يمكن التأثير عليها وتغييرها إلى الأفضل . فبهذا اللون من الكفاح بعد فوات الأوان ، تبدو أمام الناس وطنيا ، مع أنك لم تفعل شيئا .

وفى حالة هيكل لم يقتصر الأمر على الكفاح بأثر رجعى ضد سياسات كان أثناء حدوثها متفرجا ، بل إنه كافح بعد فوات الأوان ضد سياسات كان هو نفسه قد أسهم بنصيب كبير فى صنعها . ومثل هذا الكفاح ليس سهلا قليل التكلفة فحسب ، بل هو أيضا كفاح خادع ، إذا شئت أن أستخدم هذه الألفاظ .

وسنضرب لهذا الأسلوب فى الكفاح ، وفى إظهار الوطنية ، بضعة أمثلة قد لا تحتاج إلى شرح مفصل ، لأنها سبق أن عرضت بتوسع من قبل . فكل ما يقوله هيكل الآن عن الافتقار إلى الديمقراطية وانتهاك الدستور والقوانين الاستثنائية ، إلخ ... هو كفاح بأثر رجعى ، لأنه لم يكن يدعو إليه فى الوقت المناسب ، بل نادى به — فقط — بعد أن كان كل شىء قد انتهى . وكما رأينا من قبل ، فقد كان لهيكل دور هام فى تهيئة الأذهان لطرد الخبراء السوفيت والتشكيك فى قيمة أسلحتهم ، وكذلك فى الدعوة إلى تحييد أمريكا . وبعد أن تحقق ما كان يدعو إليه ، ثم استخلص النظام الحاكم نتائجه الطبيعية منه ، عاد هيكل فنعى على السادات تعاونه مع الأمريكان وتجاهله للسوفيت ... ومتى حدث ذلك ؟ بعد أن أصبح إصلاح الأمر مستحيلا ، وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه على الجميع . أما فى الوقت الذى كان من الممكن فيه تدارك الأمر ، فإن كتابته كانت تسير فى الاتجاه العكسى .

وبالمثل ، فإن حملته الراهنة على إدارة حرب أكتوبر سياسيا ، وعدم تطويرها عسكريا ، وإفشاء سر الحرب المحدودة إلى الأمريكان ، كل هذه وطنية بأثر رجعى ، لأن الأحداث انتهت منذ زمن بعيد ، أما فى الوقت الذى كان يمكن فيه التأثير فى مجرى تلك الأحداث ، فقد كان هيكل يدعو بكل صراحة إلى الحرب المحدودة ، وإلى التفاهم مع الأمريكان .

وأخيرا ، فإن نقده للاتجاهات التسلطية أيام عبد الناصر لم يصبح مسموعا إلا أيام السادات ، بعد أن أصبحت مراكز القوى فى حالة دفاع عن النفس . أما عندما كان هؤلاء الجبابرة يسومون الناس عذابا ، ويعتقلون الآلاف بلا محاكمة ، فلم نسمع له صوتا . وهكذا تأتى البطولة دائما متأخرة ، ويظل هيكل مشاركا فى الخطأ أثناء حدوثه ، ثم يستنكره بعد فوات أوانه من أجل كسب النقاط ورفع الأسهم وزيادة رصيد الوطنية على غير أساس .

كلمة أخيرة :

أكاد ، فى لحظتى هذه ، أسمع احتجاج القارئ ، وخاصة لو كان شابا ، وهو يقول : لقد هدمت كل مقدساتنا ، و لم تترك إلا حطاما ، وشككت الناس فى كل شىء و كل شخص ، و لم تقدم بديلا إيجابيا .

وردى على هؤلاء هو أننى لم أستهدف ، كما قلت مرارا ، أى شخص بعينه ، وسيكون قد أساء فهم مقصدى كل من يتصور أننى أريد أن أهدم أسطورة هيكل أو أكشف عيوب هذا الحاكم أو ذاك . فهذه نتائج يمكن أن تأتى بطريقة عرضية أو هامشية . أما الهدف الأصلى الذى كنت أسعى إليه فهو أن أحث قرائى على أن يفكروا فيما يرونه حولهم بوعى وتبصر . ولا بأس خلال ذلك أن تتزعزع مقدسات كثيرة ، فأولى مراحل العقيدة الصحيحة هى تحطيم الأصنام . ولا بأس من جرعة كبيرة من النقد والتشكك فى عصر أصبحنا فيه ممنوعين من أى اعتراض أو احتجاج .

إن هدفى الحقيقى ليس هيكل ولا السادات ولا عبد الناصر ، بل هو عقولكم أنتم . فمن هذه العقول تأتى الهزيمة أو النصر .

ولقد كتبت هذه الصفحات كلها فى أيام قليلة ، بعد نشر كتاب هيكل مباشرة . وكنت طوال كتابتها أعجب لحماستى التى تتدفق وكأننى أريد أن أسوى حسابا طويلا قديما ، بل إن بعض القراء تصوروا بالفعل أن بينى وبين هيكل ثأرا خاصا ، وذلك جريا على عادتنا فى تفسير كل شىء بعوامل شخصية .

وحقيقة الأمر هى أن هناك بالفعل حسابا أردت أن أسويه ، ولكن ليس مع هيكل أو أى شخص آخر بعينه ، بل مع أسلوب فى الحكم وفى التفكير وفى معاملة الإنسان للإنسان كنت أرفضه على الدوام .

كان يكفى أن أسير فى شوارع القاهرة كل صيف ، وأرى الفارق بين

قاهرتى الجميلة التى شهدتها فى طفولتى وصباى ، وقاهرة اليوم التى خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون أن يفعل ..

كان يكفى أن أقارن بين تعليمى فى طفولتى والقشور التى يتلقاها أطفال اليوم بأقل الأساليب أمانة وإخلاصا ...

كان يكفى أن أتأمل تعاسة أبناء وطنى حين يبحثون عن العلاج ، أو عن مسكن ، أو عن وسيلة اتصال ...

كان يكفى أن أتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية ، منذ أن صعدت لتناطح أقدم إمبراطوريات الأرض ، حتى هبطت إلى حضيض « إزالة آثار العدوان » بعد أن أصابتنا هزيمة نكراء على يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليط لا يزيد مجموعه عن سكان بلدة متوسطة فى وطنى ...

كان يكفى أن أرى طائرات العدو تمرح فوق سماء بغداد ، وجيوشه تصول وتجول فى شوراع بيروت ...

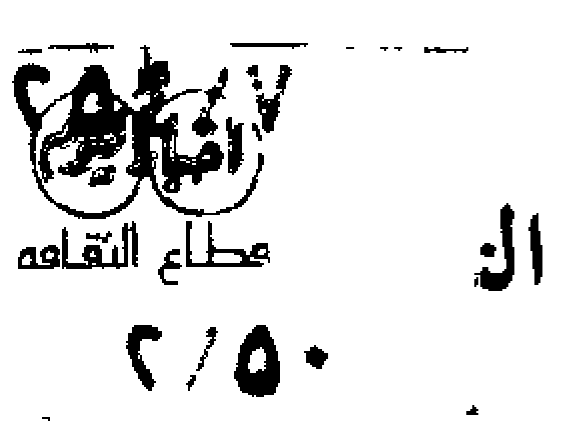
كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكى أتساءل : ما الذى حدث ؟ ولكى أجد نفسى مدفوعا بقوة عارمة إلى تسوية الحساب ، لا مع هيكل بالذات ، بل مع كل القيم وأساليب الفكر والحكم التى كان يجسدها ويبررها ..

كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكى أغضب ، ولكن غضبى لم يكن وليد خريف غضب عاصف ، بل كان عمره أطول بكثير ...

الفهـرس

رقم الإيداع ١٨٦٤ / ١٩٩١
I. S. B. N. 977 – 11 – 0636 – 8

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه